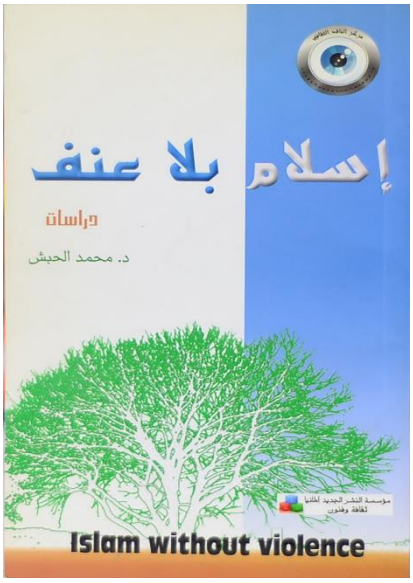

مركز الدراسات
لبحوث التنوير والحضارة

إسلام بلا عنف

دراسات

د. محمد حبش

إسلام بلا عنف

الطبعة الثانية ٢٠٢٣

جميع الحقوق محفوظة

المؤلف: د. محمد حبش

هذه الطبعة من إصدار مركز الدراسات لبحوث التنوير والحضارة

دار متخصصة بالدراسات الإنسانية وإخاء الأديان

١٩- مدينة الشارقة للنشر- شارع الشيخ محمد بن زايد - الشارقة - الإمارات

هاتف: 00971551512545

habash2005@gmail.com

www.mohammadhabash.org

Edition 2- 2023

All Rights Reserved

Mohamad Habash

This edition is issued by the Studies Center for Civilization and Enlightenment Research.

The center specializes in human studies and brotherhood of religions

Address 19- Sharjah Publishing City - Sheikh Mohammed Bin Zayed Rd - Sharjah - UAE

Tel: 00971551512545

habash2005@gmail.com

www.mohammadhabash.org

تصدير

إسلام بلا عنف هو المشروع الذي تستهدف بناءه هذه الدراسات، وهو عنوان صادم بكل تأكيد، ولكنه في الواقع حصيلة مراجعة لقرن كامل من العنف جاء على ظهر آمال كبار من البحث عن الأمن والسلام، كانت تحدو آمال قادة العالم، وقد أعرب قادة العالم عن هذه الآمال الكبار في مؤتمر خاص عقدوه لاستقبال القرن العشرين، وفي المؤتمر قدمت أكثر الكلمات إشراقاً وأملاً، وقال العالم وداعاً لعصر الحروب والعنف والقتل، وأهلاً بعصر الكهرباء والفضاء والتكنولوجيا والحوار والتفاهم، وأعلن زعماء العالم عن القرن الجديد القرن العشرين قرن الحوار والسلام، والعلم والعمل، وإخاء الإنسان للإنسان، ستختفي الحروب وستوضع الدبابات في المتاحف، وستتحول المدافع إلى مداخن مصانع، وسيرعى الحمل مع الذئب، والحمام مع العقارب، وستصبح الشعوب إخواناً على سرر متقابلين، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً.

هكذا على الأقل كانت أحلام بسمارك أبو الرايخ الثاني وهو يكتب مذكراته نهاية القرن التاسع عشر وخليفته فون رون مطلع القرن العشرين، وكانا يرسمان ازدهار العالم على لوحة الآمال المعقودة على التقدم التكنولوجي الجبار.

بعد مرور مئة عام لست أدري كيف سيشرح الحكماء البائسون الذين عقدوا الآمال على عصر الكهرباء، لست أدري كيف سيقرؤون المشهد الدامي لصراع الإنسان مع الإنسان، لقد انتهى القرن العشرون الذي بدأ بآمال كبار ولكنه كان كما وصفته مادلين أولبرايت في كتابها الأخير (جبار الجبابرة) أكثر القرون دموية وهولاً في التاريخ، أما ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكي ومهندس الحرب على فيتنام فقد قال في البرنامج الوثائقي (ضباب حرب) في مقابلة مع شبكة (سي إن إن) الإخبارية: إن القرن العشرين (أكثر القرون دموية في التاريخ الإنساني كلِّه)؛ إذ راح ١٦٠ مليون شخص ضحية لصراعاته... حربان عالميتان حصدتا أكثر من تسعين مليون قتيل ومعاق، ونحو مئة حرب إقليمية حصدت عدداً مماثلاً، وبدا الإنسان بعد عنائه هذا أقرب إلى لغة هتلر من لغة هابيل وكأنه لم يتعلم من درس الحياة شيئاً.

من العسير أن نتصور أنَّ الآتي من الأيام أقلُّ هولاً أو أحسن تسامحاً وعطراً، فالحروب التي أشعلها أصحاب المشروع الصهيوني من شعب الله

المختار الذي يتوعد العالم بأن الدنيا تؤلف ولا تؤلفان، كما توعد الأوس والخزرج من قبل بالمخلص الآتي الذي سيقتلهم قتل عاد وإرم، ورفع عقيرته من جديد ليتوعد بالشرِّ إياه، أن بناء الهيكل لابدَّ أن يقوم على رأس الألف الثالث وأن المخلص يستعجل قيام هرمجدون ليأتي إلى العالم على ركامٍ من جثث الكافرين، ومضى بوش يغمض عينيه بخشوع وهو يتمنى أن ينال شرف قيادة هرمجون الجديدة، وقد صرَّح بهذا لزواره وقال إن الرَّبَّ أمره أن يذهب إلى إسرائيل وأن يضرب في العراق، وقيل له: أيها الكاوبوي المغامر، إنك تذكر مع الرؤساء، مع كلينتون وكارتر وريغان وفورد، ولديك فرصة لتذكر مع الأنبياء، مع موسى وهارون وسليمان وداود إذا أنت أنجزت إرادة الربِّ في ريِّ الفرات بالدَّم، لتبني الهيكل وتطهر الأرض من أعداء الرَّبِّ وتهيئ العالم لقدوم المخلص، وراح يقول: أنا لها، أنا لها...

وحين كان الصهاينة يستقبلون القرن الجديد بتنصيب شارون رجل المرحلة في هرمجدون الدم، كانت جماعات أخرى مكافئة في الغاية والوسيلة تعقد الألوية لعملية مجنونة لا تُبقي ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر، ستضرب في مركز التجارة العالمي وتحيل آمال الوئام إلى ركام، ولتبدأ بعد ذلك سلسلة حروب ظالمة حصدت إحداها مليون عراقي، وشردت ملايين أربعة،

ومازال الإنسان يجري في كل وجه من حلاوة الروح، يهرب من الهول، ويقول: يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً.

العنف والموت والقهر، دأب قابيل مذ أصبح في العالم سعارٌ وذهب، وقد دفع هابيل حياته ثمناً لأطماع قابيل، وقد يكون العالم كله اليوم من نسل قابيل، ولكن القرن الجديد قدم على أسوأ من مثال قابيل، من نسج داروين الذي أعاد لصق الإنسان بزملائه البيولوجيين في الطبيعة، بحيث يمضي في سياق صراع البقاء الذي لا ينتهي، حوتاً أو سمكة، ذئباً أو حملاً، أفعى أو حمامة، يأكل أو يُؤَكَّل، يقتل أو يُقتَل، ولا داعي للدهش في ما يشعله من حروبٍ ويسحقه من جثثٍ فهذا سياق الطبيعة، وإن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر! فهل قدر ابن آدم أن يمضي بين ركام المظالم على أشلاء أخيه الإنسان؟!

تحاول هذه الأوراق أن ترسم ملامح عودة هابيل إلى عالم يحكمه قابيل بيدٍ من حديد، ومع أن العودة هنا تبدو محض انتحار، ولكن كاتب هذه السطور يصرُّ أن لا خلاص لهذا الشرق إلا بغاندي من العرب، يحمل آمالهم في الحرية والخلاص، على أساس من المقاومة الصارمة، التي لا تعرف الدم ولا العنف، ولكنها تؤصل لحرية الإنسان وكرامته، وتقدِّم للشعوب نعمة الحياة على

مركب الديمقراطية والحرية، الذي لا يشك كاتب هذه السطور أنه الهدف الأسمى للأنبياء، وأنه أعظم أوامر الله لابن آدم.

(اللاعنف) كلمة ساحرة لها في كلِّ أرضٍ في العالم أتباعها وأنبياؤها وقديسوها، ولكنها هنا مطاردة في الشرق؛ إذ تعامل على أنها فكرة مناقضة للحدود والجهاد، وأن الإسلام يتجه إلى منطق السن بالسن والعين بالعين، وأن القتل أنفى للقتل، ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون، وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، وإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، تقاتلونهم أو يسلمون!

ليس لديَّ أدنى شك في أن مقاصد الإسلام الكبرى تتجه إلى رسالة الجهاد، ولكنني مصرٌّ أن ثقافة اللاعنف هي أيضاً ثقافة قرآنية كريمة، وأن الجهاد الذي أفهمه لا يعني الاستهتار بدم الناس، ولا بسط السيف على رقاب المخالفين، بقدر ما يعني توفير مؤسسة قادرة على حماية الأمة والمجتمع من أطماع الطامعين.

واللاعنف أيضاً مسألةٌ نصية عبَّر عنها القرآن في أكثر من نصٍّ صريح، وقد سبق المعلم جودت سعيد إلى التنبيه إلى هذا المعنى حين كتب رسالته الأولى مذهب ابن آدم الأول، وجعل عنوان كتابه مذهب ابن آدم

الأول لئن بسطت إليَّ يديك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين.

واللاعنف هو صورة المجتمع الإسلامي في كفاحه الطويل في مكة، حين كانت آيات الله تترى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجَاثِيَة : ١٤].

وليست هذه الثقافة بعيدة عن هدي الرسول الكريم الذي كان واضحاً في إعلانه موقفاً فريداً من اللاعنف الإسلامي حين سأله حذيفة بوضوح: أرأيت إن دخل علي داري وأرادني على نفسي ومالي؟ قال: كن كخير ابني آدم، وحين أوغل في بيان مراده بحيث لا يحتمله لبسٌ ولا غموض: فإن خفت أن يبهرك شعاع السيف فألقِ ثوبك على وجهك يبوء بإثمه وإثمك، وفي رواية: فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل.

لقد كتب المعلم جودت سعيد في الإشارة إلى هذا التناقض:

(لم أرَ من فكَّر من المسلمين بجدية في المقارنة بين قول الرسول الكريم أن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه ومنبله والرامي به، وهذا تمجيد للسلاح لا شك فيه، ولكن ينبغي أن نفهم هذا في ضوء الحديث الآخر

الذي أمر فيه بكسر القوس وقطع وتره وضرب السيف بالحجارة وإتلافه، وأن يلزم الإنسان بيته وإن دخل الذي يريد القتل عليه في بيته أن يكون مثل ابن آدم الذي قال: لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين، ولم يقف عند هذا؛ بل قال الرسول ﷺ لصاحبه الذي تحدث إليه بهذا فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألقِ ثوبك على وجهك يبؤ بإثمك وإثمه).

إن الأنبياء قالوا بوضوح في وجه أقوامهم: ولنصبرن على ما آذيتمونا، وقال النبي الكريم ﷺ لآل ياسر وهم يسحلون تحت رمال الصحراء: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»، وقد كان قادراً أن يشكل خلايا تطهير ثوري، تبعج بطون الظالمين من مشركي مكة بسيف العدل، ولكنه لم يفعل وآثر أن يمضي نصف عمر الإسلام دون إراقة قطرة دم واحدة، وأنَّب سعداً يوم رمى المشركين بسهم، وقال له: زادك الله حرصاً ولا تعد، وقد كان في موقف الدفاع المشروع، ولكن لم يكن للنبي آنئذٍ سلطة ولا دولة وكان محض مواطن ليس مخوَّلاً بتطبيق القانون، حتى إذا ما تحول إلى المدينة أصبح من مسؤوليته الأخلاقية حماية الناس، وتحقيق الأمن في المدينة.

سيواجه القادة السياسيين هذه الثقافة بعنف، وستبدو استسلاماً بالجُّان لأطماع الأقوياء، وحين عرض السؤال إياه على المهاتما غاندي ليتحدث عن الرويال بوليتيك قال: إن تطبيق قاعدة العين بالعين جعل العالم أعمى، أما إيلي ويزل الحائز على جائزة نوبل للسلام فقد سئل: من هو أكثر شخصية حزينة في الكتاب المقدس، قال بأنه الخالق جلَّ شأنه بسب أسى الدمار الذي حصل في هذا العالم نتيجة الحروب التي جرت بين البشر باستغلال اسم الدين.

لا يمكن لكلمات كهذه أن تحسم جدلاً كهذا، وسيكون في قبالة كل دليلٍ دليل، وقد تلمع بوارق الحقيقة من تناقض الأفكار، وأنا لا أطمع هنا أن تحسم مقالاتي هذه جدل العنف في المجتمع الإسلامي، ولكنها قد تضيء بعض جوانب مظلمةٍ فتكشف بعض ما طمسناه عن عمد في غبار الصراع، حتى غاب تأويله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

كان الثوار قد حاصروا عثمان في داره يريدون قتله بدعوى خروجه عن الإسلام، فقال له عبد الله بن الزبير: أرى أن تقاتلهم أو تُحرِم بعمرة فتعصم دمك!

قال عثمان: إنهم يرونا ضلالاً قبل الإحرام وحال الإحرام وبعد الإحرام! وأما القتال فإني أرجو أن ألقى الله وليس يهراق بسببي محجمة دم!

فقه الجهاد وبؤس الفتنة

تشتد الحاجة إلى تحرير فقه الجهاد خاصة عندما نرى أن الأمَّة تقع فيما حذَّر منه الرسول الأكرم من الدخول في الفتنة والتشدد في الدين، الأمر الذي أدَّى بالغلاة إلى تكفير المسلم لأخيه المسلم واستباحة دمه وماله وعرضه، وهي كارثة مؤلمة سبق إلى التحذير منها رسول الله ﷺ بقوله لذي الخويصرة التميمي: ﷺ سيخرج من ضئضئ هذا أقوام أحداث الأسنان سفهاء الأحلام لا يجاوز إيمان أحدهم ترقوته يقولون بقول خير البرية ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

وحين ظهر التشدد في الأمة ليبال المتشددون في إراقة دم المسلم وهدر دمه، ودفع خيار الصحابة حياتهم ثمناً لمواجهة هذا الفهم السقيم للجهاد الذي تبناه المتشددون، وهنا لا أستطيع أن أبدأ في ورقتي دون الإشارة باحترام وإجلال وإكبار إلى الشهيدين السعيدين الكبيرين اللذين اغتالهما التشدد المنحرف عن هدى الإسلام وهما صاحبا رسول الله ﷺ وخليفتاه وصهراه عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب عليهما رضوان الله.

فقد استشهد عثمان ﷺ على يد طائفة يزعمون أنهم مسلمون، وقد اندفعوا في ارتكاب جريمتهم بعد أن أفتاهم المنحرفون اقتلوا نعثلاً فقد كفر، أما علي بن أبي طالب فقد قتله عبد الرحمن بن ملجم الخوارجي بسيف لئيم غادر وهو يقول: اللهم تقبل مني جهادي، فإنني ما قتلته إلا فيك وفي سبيلك!

إن ما عرفته الأمة المسلمة في عصر الفتنة الأولى هو نفسه ما نكابده اليوم من انتشار التشدد الذي حذر منه النبي ﷺ، وهو ما يفرض على قادة الأمة البحث عن الأدلة الشرعية التي تحدد فقه الجهاد وتميز بين مسؤولية المسلم في الجهاد ومسؤوليته في اجتناب الفتنة، فإن الإسلام الذي أمر بسل السيف ساعة الجهاد أمرك بكسر السيف يوم الفتنة، وهذا ما يدعونا لدراسة الأمر على وفق الأدلة الشرعية المحكمة، وهو ما آمل أن تؤديه هذه الورقة.

معالم فقه الجهاد في الإسلام

الجهاد أحد دعائم الإسلام الكبرى، وهو إرادة الله لحماية الحقِّ في مواجهة الباطل، وقد شرع الجهاد مع أيام الإسلام الأولى، ويجب التنبيه هنا إلى أن الأمر بالجهاد قد ورد في مطلع الآيات المكية وليس صواباً أن يقال إنه فرض في السنة الثانية للهجرة كما اشتهر لدى الناس، ففي سورة العنكبوت مثلاً قول الله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [العَنكَبُوت : ٦]، وفي آخر العنكبوت يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العَنكَبُوت : ٦٩].

والجهاد الذي كان مشروعاً في مكة كان في الواقع يختص بجهاد النفس والهوى ويتناول أيضاً أشكال الجهاد المختلفة، وقد عددنا منه تسعة أنواع من الجهاد، وهي مطلوبة من المسلمين بحسب أحوالهم وإمكاناتهم، وهي:

جهاد النفس والهوى، والجهاد بالمال، والجهاد بالتعليم، والجهاد بالإغاثة، والجهاد بالطبابة، والجهاد بالكلمة، والجهاد بالدعاء، والجهاد بالنصرة، والجهاد بالإعلام.

أما الجهاد بالقتال فهو الذي تأخر إلى ما بعد الهجرة النبوية؛ إذ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العَنكَبُوت : ٦٩].

وفي مراجعة سريعة لآيات الجهاد فإنه يمكنك أن ترى نحو سبعة عشر مستوى من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الجهاد، وهي آيات تبدأ من مثل قول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [الجَاثِيَة : ١٤]، ثم ترد آيات كثيرة تنهى عن القتال كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلَا ٤٨﴾ [الأَحۡزَاب : ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ﴾ [المَائِدَة : ١٣]، وفي آية أخرى ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [الزُّخۡرُف : ٨٩]، وثم يرتقي الأمر إلى حدِّ الإذن بالمواجهة كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحَج : ٣٩ - ٤٠]، ويرتفع إلى حدِّ الإذن برد العدوان ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البَقَرَة : ١٩٤]، ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البَقَرَة : ١٩٠]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشُّورَى : ٤٠]، ثم تأتي آياتٌ بيناتٌ في صريح الأمر بالقتال ضدَّ المعتدين كما في سورة البقرة: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البَقَرَة : ١٩٠]، ويزداد الأمر

وضوحاً حتى يؤمر النبي بالقتال والتحريض عليه كما في قوله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النِّسَاء : ٨٤].

ولكن هذا الأمر الإلهي يأخذ أبعاداً أخرى حين يأمر القرآن الكريم بصريح العبارة بالقتال ضدَّ الكافرين والمشركين؛ إذ يقول الله سبحانه: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [التَّوْبَة : ٤١].

وبعد ذلك تنزل آيات شديدة في حقِّ المتقاعسين عن القتال: ﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التَّوْبَة : ٩٠]، ويؤمر المسلمون بقتال المشركين كافة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التَّوْبَة : ٣٦].

وفي آيات أكثر وضوحاً يرد الأمر الإلهي بالنص: ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التَّوْبَة : ٥]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ [مُحَمَّد : ٤].

تكمن المشكلة في أن التيار التكفيري يرى في هذه الآيات ناسخاً لما تقدمها من الآيات البينات، وتشتهر عندهم عبارة: الأمر على ما مات عليه الرسول، وبهذا المعنى فإن هذه الآيات تبدو ناسخة لكل ما تقدمها من نصوص القرآن الكريم، ولا مكان بعد ذلك لآيات الرحمة والسلام والمحبة بعد أن فرض الله على المسلمين جهاد المشركين كافة.

والحقيقة أن القول بالنسخ في هذه الآيات لا يمكن قبوله ذلك أن القول بالنسخ عقلاً وشرعاً يشترط شروطاً ثلاثة: وهي أن يتعذر الجمع بين النصين، وأن يكون الناسخ في قوة المنسوخ أو أقوى، وأن يعلم المتقدم والمتأخر، وفي هذه الآيات الكريمة فلا وجه للقول بالنسخ؛ لأن الجمع بين النصوص ممكن، ويجب قراءة كل نص في سياقه، فلكل حديث سبب ورود كما في القرآن الكريم أسباب نزول، وقد بسط العلماء القول في ذلك.

غاية الأمر أن آيات الجهاد باقية محكمة ومكانها ساحة المعركة، ولا يوجد أي سبب للقول بأن هذه الآيات ناسخة أو منسوخة، فحيث نقرأ الأمر بالغفران عن الذين لا يرجون أيام الله من الكافرين فالمقصود هم أولئك الذين لم يحاربوننا في الدين ولم يخرجونا من ديارنا ولم يظاهروا على إخراجنا تماماً كما أخبر القرآن الكريم: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ

عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [المُمْتَحنَة : ٨ - ٩]

وهكذا فإن آيات الجهاد محكمة متينة ولا وجه للقول بإلغاء أي منها؛ بل المقصود أن ندرك المكان والزمان الذي ينبغي أن نمارس فيه القتال، وهو مواجه العدو المحارب، وليس مجرد الاختلاف في الرأي أو الدين أو العقيدة.

إن النبي الكريم هو من نزل عليه قول الله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النِّسَاء : ٨٤]، وهو الذي نزل عليه قول الله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التَّوْبَة : ٥]، وهو الذي نزل عليه قول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةً﴾ [التَّوْبَة : ٣٦]، ولكنه مع ذلك لم يقاتل كل مشرك، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي بصاع من شعير، مما يعني أن اليهود وقد كانوا كفاراً كانوا موجودين في المدينة وفي وضع اقتصادي قوي بحيث يقترض منهم الرسول الكريم الذي هو رئيس الدولة!

جهاد الدفع وجهاد الطلب

والفقهاء يقسمون الجهاد وفق أدلة الشرع إلى نوعين:

- جهاد الدفع
- وجهاد الطلب

فجهاد الدفع هو الدفاع عن المقاصد الخمسة من الدين والنفس والعرض والعقل والمال، وهذا اللون من الجهاد تدركه اليوم الأنظمة الحديثة على اختلافها، وفي كل دولة في العالم وزارة دفاع معنية ومسؤولة عن جهاد الدفع لحماية الأوطان والإنسان ورد كيد الطغيان، وهو أمر لا خلاف فيه ولا مزيد عليه.

أما جهاد الطلب وهو ما يتمسك به عادة دعاة الصدام مع العالم فيتم تفسيره عادة على أنه قتال الناس لإدخالهم في الدين الحق، ويستند ذلك التعريف مباشرة إلى ما نقله الفقيه الحنبلي ابن قدامة من أن الجهاد هو قتال الناس لإدخالهم في الدين الحق، ومقتضى ذلك فإن من رسالة الجهاد أن يطارد غير المسلمين لإجبارهم على الإسلام، ولا يشير هؤلاء إلى الخيارات الثلاثة المعروفة من الإسلام أو الجزية أو السيف على أساس أن الدعوة قد بلغت

الناس ولا حجة لأحد في الإعراض عن الإسلام، وأما الجزية فهي خاصة بالنصارى واليهود من غير العرب، أما العرب فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وهذه أهم بعض النصوص التي يستندون إليها الذي يوجب قتال الناس لإدخالهم في الإسلام: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفَتْح : ١٦].

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأَنفَال : ٣٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التَّوْبَة : ١٢٣].

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التَّوْبَة : ٢٩].

والحق أن هذا الفهم غير مقبول على الإطلاق وهو يتناقض تناقضاً حاداً مع قيم الإسلام الكبرى في العدل والرحمة والإحسان ويتناقض مباشرة مع قول الله ﷻ ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البَقَرَة : ٢٥٦]، وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس : ٩٩]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغَاشِيَة : ٢١ - ٢٢]، وقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن

شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكَهْف : ٢٩]، وغيرها من النصوص التي تدعو إلى الإيمان بالحكمة والموعظة الحسنة وتكل أمر الحساب إلى الله سبحانه في الدار الآخرة.

وفي الواقع فإن قراءة واعية لسنة الرسول الكريم تكشف لك الموضع الذي تعثرت فيه فهوم هؤلاء، وانحرفت عن السياق الصحيح للوعي الإسلامي بالرسالة الخاتمة، فقد كان الرسول الكريم يرسل دعاته في الآفاق ليقوموا بواجب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن ذلك كان يصطدم مباشرة بمواقف أعداء الإسلام الذين كانوا يحرمون على الناس مخالفة الملوك في الدين فالناس على دين ملوكها، وهذا ما قام به كسرى والحارث الغساني حين قاما بقتل الرسول النبي الكريم على الرغم من أن الرسل لا تقتل؛ بل على مستوى الجزيرة العربية فإن عدداً من قوافل الدعوة قتلوا بالكامل على يد القراصنة واللصوص والصعاليك، ففي يوم الرجيع قتل الدعاة الثمانية الذين أرسلهم النبي الكريم على يد أشرار من العرب وفي ويم بئر معونة أرسل النبي الكريم ثمانية وثلاثين من خيار الصحابة، ولكنهم قتلوا عن بكرة أبيهم على يد عضل والقارة وما نجا إلا عمرو بن أمية الضمري الذي تظاهر أنه بين الأموات، وأمام هذا الواقع فمن المنطقي أن يكون لقوافل الدعاة قوة تحميها من الحرس والجند وهذا بالضبط ما حصل حين توجهت جيوش الفتح مع الدعاة الذين كانوا

يصدُّون عن أداء رسالتهم وتمكنوا من توفير الحماية الكافية للدعاة والمهتدين الجدد الذين كانوا يستظلون بهم في رحلة الدعوة والهداية.

ولكن هذه الحقائق تغيرت تماماً مع الزمن ولم يعد يحال بين الناس وبين أديانهم التي يريدون، وأجمعت شعوب الأرض على مواثيق حازمة تحمي حرية التدين، واليوم يتحرك الدعاة في القارات الخمس، ليبلغوا رسالة الله، ويمنحون الفيز من الدول المختلفة للدخول وفيق شروط مقدور عليها، وتبنى المساجد في كل مكان في العالم، ويمكن لأي منظمة أن تستأجر ما شاءت من العقارات والفنادق والقاعات لإقامة الشعائر الإسلامية في كل مكان في الأرض، ولهذا الأمر بالطبع استثناءات ولكنها محدودة ولا تغير شيئاً من طبيعة الحرية الممنوحة اليوم للدعاة والمبشرين المسيحيين على السواء على الأقل في الدول الديمقراطية في أوروبا وأمريكا وأفريقيا للتبشير بالإسلام، ولا يوجد أي سبب ليكون برفقة كل داعية بندقية لإقناع الناس أو لحماية الدعاة، فحماية الدعاة هنا لا تتم ببنادق المجاهدين؛ بل تتم باحترام الأنظمة والقوانين السائدة في بلدان العالم المختلفة التي توفر للزائر حقَّ النشاط الثقافي والديني والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وحتى لا نتورط بالتعميم فهذا على الأقل هو شكل الدعوة الإسلامية في أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وهي أكبر دول العالم الحر اليوم وفي كل هذه البلاد دعاة وواعظون ومرشدون يعملون في ظلِّ حماية الدول التي هم فيها، ويستخدمون المساجد والجامعات والإذاعات والمحطات التلفزيونية والصحافة ويطبعون الكتب ومنهم من يحمل جنسية البلد التي هو فيها ومنهم من هو سوري أو سعودي أو أردني أو مصري يعمل وفق أنظمة هذه البلدان ولا يمكن القول إن أحداً منهم أحبر على دين غير دينه أو منع من نشر رسالته وفق القوانين التي تحكم تلك البلدان في الإقامة والعمل.

الجهاد والفتنة

لا يوجد رسالة في الضمير الإنساني أشرف وأقدس من نشر الوعي بالحجة والبرهان للتفريق بين الجهاد في سبيل الرحمن، وبين الفتنة في سبيل الشيطان، وأن الوعي وحده يمكنه أن يجنب الناس جنون الحرب الأهلية، ويفرق بين رسالة الجهاد ووبال الفتنة، ويشرح لك متى يكون سل السيف جهاداً ومتى يكون غمده جهاداً، فالشريعة التي كلفتنا بمشقة النفس سل السيف لقتال البغاة والمعتدين، وكتب عليكم القتال وهو كره لكم، هي نفسها الشريعة التي كلفتك أن تكسر السيف يوم الفتنة، لئلا تكون وقوداً جديداً لنار الكراهية في الأرض.

إنها حقيقة من البداهة بمكان، ولكنني أعتقد أن ترك القتال في الفتن قد يكون أقسى من اقتحام المعركة يوم الجهاد، وهي حقائق أترك شرحها هنا للنبي الأكرم ﷺ: إنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس، والجالس خيراً من القائم، والقائم خيراً من الماشي، والماشي خيراً من الساعي، قال: يا رسول الله، ما تأمرني؟ قال: من كانت له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال: فمن

لم يكن له شيء من ذلك؟ قال: فليعمد إلى سيفه فليضرب بحدِّه على حرة ثم لينجو ما استطاع النجاء.

وفي رواية أخرى قال: إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً القاعد فيها خيرٌ من القائم، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، فكسِّروا قسيَّكم وقطِّعوا أوتاركم واضربوا سيوفكم بالحجارة فإن دخل على أحد منكم فليكن كخير ابني آدم، ثم تلا قول الله: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [المَائِدَة : ٢٨].

من المؤكد أن هذا اللون من الخطاب لن يمر دون نقد، وسيبدو لبعض الناس تماهياً في الاستخذاء وربما فراراً من الزحف، وسيتم تفسيره على أنه سذاجة سياسية، وربما مؤامرة لتمرير مشاريع التقسيم والتفتيت، وطرح الوهن في عزيمة أتباع المذهب أو الطائفة، ولكن قراءة في العمق لخطاب النبي الأكرم تجعلك تدرك أنه لونٌ من أشرف الجهاد الذي جاء به الكتاب وأكَّدته السنة المطهرة، ولا أشك أبداً أن حمَّام الدم العراقي الذي انفجر في العراق لن يندمل بصيحات مثل: هيهات منا الذلة، ويا لثارات الحسين! ولا بشعارات من مثل: تقحَّم لعنت أزيز الرصاص وجرب من الموت ما يقسم! وسيمضي القتل يجرُّ القتل حتى تنثلم السيوف وتفرغ المخازن، وهو ما لن يسمح به المحتل أبداً،

فالقوم أسخياء باذلون، وخزائنهم مملوءة بصناعة الموت، وسينفقون من موازناتهم لتبقى شعلة الموت موقودة، وسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة، ولن يحسم أمر الدم في العراق إلا حين نملك الجرأة والإرادة لتطبيق مذهب ابن آدم الأول، قال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله، أرأيت إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده ليقتلني؟ قال: فقال رسول الله :ﷺ كن كخير ابني آدم، وتلا يزيد: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾.

قراءة فقهية في أحكام الجهاد والصيال

لا شك أن الجهاد لا يصح تحت راية عمية ولابدَّ له من راية بصيرة، ويجب أن يكون تحت راية من بايعه المسلمون بيعةً صحيحة، ولا يحقُّ لأحد مهما كان فقيهاً أو عالماً أن يأخذ بيعة الجهاد من الناس، فبيعة الجهاد هي حقُّ ولي الأمر وحده الذي انعقدت بيعته بوجه صحيح على الأمة.

وعلى سبيل التوضيح فإن الإمام أبا حنيفة مثلاً كان يعلِّم الجهاد، وله فيه فقهٌ محكمٌ متين، والإمام الشافعي كان يعلِّم الجهاد وله فيه فقهٌ محكمٌ متين، ولكن بيعة الجهاد لم تكن لهما، وأولى من الرجلين ببيعة الجهاد الحاكم ولو كان فاسقاً، وكانت بيعة الجهاد للوليد بن يزيد ولمروان الحمار ولأبي العباس السفاخ وأمثال هؤلاء أيام أبي حنيفة على الرغم من أن أبا حنيفة أتقى وأبر وأورع وأحكم، ولكن بيعة الجهاد لولي أمر الأمة دون سواه، والأمر نفسه في سائر علماء الإسلام الأحلاء، ولا نعرف أن أحداً منهم أخذ على الناس بيعة الجهاد، وإنما كانوا يعلِّمون الجهاد ويدعون الناس إلى الطاعة لأولياء الأمر بالمعروف والإحسان.

ولكن بعض المتشددين يذهبون إلى القول بأن القتال اليوم الذي يخوضونه مع المخالفين من المسلمين هو ما قرره الفقهاء تحت باب دفع الصائل، والمقصود هنا هو الدفاع عن النفس، فلا خلاف أن من تعرَّض للعدوان فهو معذور في القتال ولو كان دون إذن الإمام أو تفويض العلماء؛ لأن الصائل قد يباغتك في أي مكان ومن غير المعقول أن تنتظر إذناً للدفاع عن نفسك؛ بل تقاتل الصائل بأي سلاح توفر لك، فإن قتلته فأنت بريء، وإن قتلك فأنت شهيد.

الأصل الذي يرسم واجب المسلم في الفتن هو قوله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»، وأمام نصٍّ صريحٍ صادمٍ كهذا لا يحتمل أيَّ تأويل ثارت سلسلةٌ من التساؤلات الكبيرة، وتناوب الأصحاب على استيضاح الأمر من الرسول نفسه، وقال قائلهم: يا رسول الله، هذا القاتل فماذا ذنب المقتول؟ والجواب النبوي لم يتأخر عن البيان وكشف النبي الكريم: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

وهكذا فقد وقفت الشريعة موقفاً صارماً قاسياً في رفض الاقتتال الداخلي، واستخدمت أقسى عبارة تهديد ووعيد في حقِّ المنغمسين في القتال الداخلي: الوعيد بجهنم للقاتل والمقتول جميعاً، وكان ينبغي لأمة تؤمن بربانية

مصدر التشريع أن يصعقها هول الوعيد هذا فتكسر السيوف حال الفتن، وتعتزل الناس!

ليس التكليف بترك السيف في الفتن أمراً سهلاً؛ بل هو بكل تأكيد أقسى من الأمر بامتشاق السيف يوم المعركة، أو قل إن شئت إن الأمرين في الشدة والعناء سواء، ولكن علينا أن نتذكر أن الشريعة التي أمرت بسلِّ السيف يوم الجهاد أمرت بكسر السيف يوم الفتنة، وقد جاءت بيانات النبي الكريم ﷺ واضحة صريحة في ذلك، حين جاء حذيفة بن اليمان يسأل النبي الكريم ﷺ عن موقف المؤمن أيام الفتن:

قال حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنَّا كنَّا في جاهليةٍ وشرٍّ، فأكرمنا الله بمبعثك فهدانا إلى هذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك يا رسول الله؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: تعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك.

والأمر هنا صريح وواضح في وجوب اعتزال الفتنة كلها مهما بدا لك هذا الخيار مرهقاً بالأوهام، فإن الأمر الذي لا شك فيه أن المسلم مأمورٌ بالهرب من الفتن، وقد قال ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتتبع بها شعف الجبال يفرُّ بدينه من الفتن».

إن الخروج من مستنقع الفتنة وإن بدا مطلباً سلبياً ولكنه في العمق أكثر من إيجابي، وهو يكشف لك عن إرادة واضحة للرسول الأعظم لحقن الدماء مهما كانت المبررات والأهداف، ولو كان ذلك على حساب الكرامة الشخصية للأفراد وهو الأمر الذي اقتحمه البيان القرآني إلى الغاية بالتعبير الصريح: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائِدَة : ٥٤]

الفرق بين اعتزال الفتن وردّ الصائل وقتال البغاة

ولكن دليلين آخرين ينهضان مقابل هذا الدليل الجلي ويؤدي كل منهما إلى الارتباك في منهج التصرف وقت الفتن، الأول: هو قول الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحُجُرَات : ٩].

والآخر قوله ﷺ: «**من قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِل دون عرضه فهو شهيد، ومن قُتِل دون دينه فهو شهيد**»، وواضح أن الأمر هنا يشتمل على دعوة للدفاع عن النفس في مواجهة الباغي، ولو أدى ذلك إلى إراقة الدماء!

ويبدو لأول وهلة أن كلًّا من النصين كافٍ لنسف مقولة المقاومة السلبية من أساسها ولإغراء الأمة باقتحام سبيل المقاومة المسلحة مع كل معتدي دون تفريق بين الصديق والعدو!

ولكن بالآلة الأصولية نفسها فإن علينا أن نقرر من هو الباغي؟ وكيف لنا أن نجزم أيُّ الفريقين هو مَن أَمرَ القرآن بقتاله على أساس أنه من

البغاة، ولكن قراءة متأنية لنصوص الشريعة تجعلك تدرك أن الخطاب هنا موجه للأمة بمجموعها عندما تكون موحدة ولها إمام انعقدت بيعته بوجه صحيح وليس له معارض، فههنا الأمر القرآني موجه إلى القيادة التي حظيت ببيعة تامة لا نزاع فيها، وأصبح لها مؤسسة قضائية تحظى باحترام الجميع، وفي الآية نفسها النص الصريح بذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحُجُرَات : ٧]، ومقتضى ذلك أن النبي الكريم بوصفه قائداً إجماعياً للأمة هو من يحدد البغاة ويأمر بقتالهم، وهنا نفترض بأن الدولة موحدة مستقرة، فوقع نزاع بين قبيلتين أو قريتين أو حزبين أو حركتين، فههنا يتعين على قيادة الأمة التي حظيت بالإجماع أن تبدأ بالصلح بين المتقاتلين فإن أبت إحداهما فتقاتل التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل.

وهكذا فلا يمكن على الإطلاق إعمال هذا النصِّ في ظروف الانقسام والفتنة حين لا يكون للأمة رأس واحد محل إجماع الكافة، وهنا بالضبط أجاب النبي الكريم ﷺ على سؤال حذيفة حين قال: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «تعتزل تلك الفرق كلها، فليس لمن لم يحظ بإجماع الأمة أن يكون حكماً في تحديد الباغي من الفريقين»، وهنا نستأنس بموقف الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص الذي اعتزل الفتن كلها على الرغم من أن

الباغي كان محدداً بما يشبه النص، حين قال الرسول الكريم لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية»، ومع ذلك فإن سعداً لم يرَ الجهة المرجعية التي يمكنها تطبيق نصَّ كهذا فاختار اعتزال الكل وكان أكثر الصحابة حكمة ونجاحاً وتوفيقاً.

أما النصُّ الآخر في أن من قُتِل دون ماله أو عرضه فهو شهيد فهو ما درسه الفقهاء الكرام تحت عنوان: دفع الصائل، والصائل هو المعتدي الذي يبلغ فناء دارك ويهم بالاعتداء عليك فهنا يشرع لك الدفاع عن نفسك، ولكن هذا الدفاع مقيد أيضاً بأدلة الشرع، فهو أولاً خاصٌّ بمهاجمة الصائل نفسه، وهو من يتحرك مباشرة للاعتداء عليك، والتعبير بالصائل دقيق وضروري ولا يجوز أن يشمل أكثر من الصائل نفسه، فلا يجوز هنا قتال أهل الصائل أو فصيل الصائل أو شريك الصائل أو حزب الصائل، ولا حتى الآمر بالصيال، وذلك لأن دفع الصائل استثناء من الأصل وضرورة ينبغي أن تقدر بقدرها، ولا يجوز التزيد عليها.

وزيادة على ذلك فإن الفقهاء نصُّوا هنا على عدد من الأحكام لضبط سلوك الأفراد؛ لأن دفع الصائل استثناء من الأصل فالأصل أن الدولة هي من يقيم الأحكام والعقاب، ولكن هنا جاز للأفراد ذلك ضرورة؛ لأن

الصائل قد يبلغ مراده من الضحية قبل أن يصل الغوث من الدولة، فيجب التقيد بشروط صارمة في ذلك، ومنها أن الصائل إذا أمكن دفع شره بالصياح والاستغاثة لم يجز ضربه بالعصا، وإن أمكن دفعه بالعصا لم يجز ضربه بالسلاح، وإن رده ضربه في رجليه لم يجز ضرب رأسه، وهذه كلها يقدِّرها المدافع الذي يتعرض للاعتداء!

ومع ذلك كله فلنتأمل في معنى ثناء النبي الأكرم على الشهيد المقتول، وعدم ثناءه على المدافع القاتل، مع أنه معذور ولا حرج عليه، ولكن رسول الله ﷺ ذكر المقتول هنا الذي يموت في دفاعه عن عرضه وماله ودينه!

وهكذا فإن أحكام دفع الصائل لا يجوز أبداً أن تكون تبريراً لما يحصل اليوم من الترصد والاغتيال والثأر والانتقام على أساس أنه رد للصائل، وهي الدعوى التي يستخدمها اليوم بالتساوي طرفا النزاع من المتورطين في القتال الداخلي الفلسطيني.

أعتقد أنه بعد تحرير هذه المسائل في الشريعة لم يعد من حقِّ أحد أن يقول في تبرير الفتنة الطاحنة إنها حقٌّ شرعيٌّ في الدفاع عن النفس يبيح له الترصد والاغتيال والثأر لمخالفيه مهما زين ذلك بأعذار ظالمة أو فاجرة.

التكفيروهدرالدم

ليست المشكلة في التكفير؛ بل المشكلة فيما يستتبع ذلك من تهديد لحياة الناس، فلو كانت المشكلة في إعلان الآخر غير مقبول دينياً لكان الأمر في غاية اليسر والسهولة، فليست لدي شخصياً مشكلة أن يقال لي: أنت كافر بصلب المسيح أو كافر بطبيعته اللاهوتية فهذه مسألة لا أنكرها ولا تزعجني؛ لأنني أعلم أنه لن يكون لذلك تبعات أخرى، ولدي جوابي الذي يفهم منه صديقي المسيحي أنني أختار موقفي الفكري دون أي إساءة للسيد المسيح أو لمن يتبعونه؛ بل هي طريقة أخرى في تفسير محبتي للسيد المسيح وبيان عناية الله تعالى به وحمايته له.

ليست المسألة إذاً في التكفير؛ بل فيما شاع لدى الناس أن الكفر يهدر عصمة الدم، وبذلك فإن من يختار موقفاً آخر يختلف في الاعتقاد فإنه يقامر بعنقه ويبيح للسلطان أن يستتيبه ثلاثاً، ومن ثم أن يأمر بضرب عنقه، وهو كلام جدُّ خطير، ولو لم يكن هناك سلطان ولا والي ولا إمام، إذ ما أسهل أن تنتج الثقافة التكفيرية محتسبين مأجورين لتنفيذ هذه الأحكام بالبسالة المطلوبة ويحصلون على آلات القتل مأجورة أو غير مأجورة، إنما نقتلكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.

فإلى أي حدٍّ يصح القول بأن الكفر يستلزم هدر الدم، ومن ثم إقامة حدِّ القتل على الكافر؟

وحتى لا نغرق في الأوهام، فإن الكفر الذي قررت الشريعة أنه يستوجب القتل والقتال هو الكفر المتصل بالحرابة والعدوان، وهو حالة مفهومة تماماً حين كانت الأمة في حرب مع كفار قريش، وحين يخرج رجل كعبد الله بن خطل فيعلن خروجه من الإسلام، ويلحق بمعسكر قريش ويغري قريشاً بحرب الإسلام ويكرس نفسه عدواً للأمة يمنح أسرارها لعدوها، وحد الردة هنا الذي قررته الشريعة وطبقه الفقهاء يمكن فهمه تماماً إذا تذكرنا الطيار السوري المرتد بسام عدل الذي ركب طائرته قبل عشر سنوات ولحق بإسرائيل وخان دينه ووطنه وهو يمضي اليوم أيامه في السجون الإسرائيلية بعد سلسلة من الجرائم ارتكبها تجاوزت ما يقبله الصهاينة أنفسهم من خائن محترف.

أعتقد أنه بهذا المعنى يجب أن نفهم كل ما قالته نصوص الشريعة في حد الردة، وهنا ستجد أنك مؤيد بالنقل والعقل والشرعة الدولية وحقوق الإنسان في معاقبة مجرم من هذا الطراز.

ولكن تحرير حكم الردة على أساس أنه الاختلاف في الموقف الفكري يعتبر من وجهة نظري أبلغ إساءة لقيم الإسلام في الحرية والرحمة والعدالة، وهو

يتناقض بالكلية مع سلوك المسلمين إبان صعودهم الحضاري يوم كان المخالف في الرأي يحظى بعناية الدولة المسلمة وحمايتها مهما كان اختلافه حاداً إذا لم يتجاوز الجانب الفكري والنظري، وهنا فمن المناسب أن نتذكر جهد خلفاء الإسلام الكبار كأبي جعفر المنصور والمأمون في تنظيم الندوات الصريحة مع الدهريين الذين أنكروا بالمطلق وجود إله وقالوا العالم مادة! حين كانوا يعقدون المناظرات على شواطئ دجلة بإشراف وحضور مباشر منهم ليستمعوا إلى فقهاء الإسلام وهم يحاورون المخالفين بالحجة والبرهان دون أي آلة قهر أو قمع، وبعد ذلك كان المخالفون يعودون إلى بيوتهم ويمارسون حياتهم ويكتبون مزيداً من كتبهم وأفكارهم، وكان الخلفاء يشترون بالذهب ما يترجم من كتب اليونان والرومان، مع أن الثقافة الوافدة هذه كانت لا تخفي وجهها المادي في كثير من الأحيان وتتحدث لغة مناقضة في الصميم لجوهر العقيدة الإسلامية!

وهي حقائق دلت لها الآيات القرآنية المتضافرة في الكتاب العزيز: أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ لا إكراه في الدين، وعليه فإنه لا إكراه في التقوى ولا إكراه في العبادة، ولو شاء ربك آمن من في الأرض كلهم جميعاً.

ولكن هذه الروح من إعذار المخالف في الفكر ومعاقبة المخالف الذي يستخدم العنف توشك أن تنطمس في غبار الفكر التكفيري الذي

يستبيح اليوم دماء المجتمع بأسره على أساس ظواهر نصوص تقتطع من سياقها ومواردها، وسأكتفي هنا بتقديم بعض الأمثلة السريعة مما يمكن قراءته كل يوم لفهم كيف تحولت مسائل حكم الردة من مسؤولية قانونية لحماية أمن الأمة إلى راديكالية متطرفة تبرر بسهولة استباحة الدماء والأعراض.

عادة ما يتم الاستشهاد بالحديث المشهور، وفيه أن أسامة بن زيد واجه رجلاً من المشركين، فلما تمكَّن منه قال الرجل: اشهد أن لا إله إلا الله، فكفَّ عنه أسامة ولكنه عاود بعد ذاك القتال حتى تمكَّن منه أسامة فنطق الشهادتين ثانياً، ولكن أسامة لم يكف عنه؛ بل قتله بالسيف، وحين عاد إلى النبي الكريم فأخبره بما جرى، غضب النبي الكريم ﷺ وقال: «أقتلته بعد أن قالها؟!» قال: إنما قالها تعوذاً من الموت، فغضب الرسول وقال: «وهل شققت عن قلبه؟ وهل شققت عن قلبه؟ كيف تصنع إذا جاءتك لا إله إلا الله تحاجك يوم القيامة؟».

ولكننا إذ نورد عادة هذا الحديث نواجه سؤالاً طبيعياً بعد ذلك وهو ماذا لو لم يقل هذه العبارة؟ فهناك بلايين البشر اليوم لا ينطقون بالشهادتين من أهل كتاب وبوذيين وهندوس وعلمانيين ولا دينيين، فهل هؤلاء مهدورو الدم، يجب قتلهم وسلب أموالهم، وهل يؤسس الإسلام لعلاقات دموية مع أمم

الأرض بحيث لا يكون التعايش إلا على مبدأ أسلم تسلم وإلا ضربناك بالسيف؟

واضح أن هذا الحديث ورد في غبار المعركة، وهناك يتعين أن يكون الأصل التهمة ولا خيار للعسكري، وهو في موقع الحراسة في أن يكون مشرع البندقية تجاه كل قادم وأن يكون الأصل هو الاتهام والريبة والاستثناء هو حسن الظن، ولكن لا يسوغ على الإطلاق أن يكون هذا اللون من الخطاب هو الأصل الذي يحكم علاقات المسلمين بغيرهم كافة، ومن السذاجة تصور أننا نحتاج إلى هذه الكلمة لعصمة دم الآخر المخالف؛ بل إن القرآن الكريم ذهب هنا إلى أبعد من ذلك حين قالت الآية الكريمة : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النِّسَاء : ٩٤]، فالحديث هنا عن إيمانه أو عدم إيمانه وليس عن عصمة دمه أو استبقاء حياته.

إن خطاب النبي الكريم في عصمة الدم كان واضحاً وجلياً في آخر أيام حياته ولقائه مع الناس حين وجَّه خطابه بوضوح للعالم في حجة الوداع: «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام حرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، أيها الناس، كلكم لآدم وآدم من تراب».

لم يقل يومها يا أيها الذين آمنوا، ولا يا أيها المهاجرون، ولا يا أيها الأنصار، ولا يا أهل بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان وإنما كان قوله: يا أيها الناس، وهو تأييد لخطاب القرآن الكريم: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائِدَة : ٣٢]، وهنا نلاحظ أنه لم يقل من قتل مؤمناً أو مسلماً أو سنيًّا أو شيعياً، وإنما قال: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسَاً﴾.

وهكذا فإن الفكرة الشائعة من تلازم الكفر أو الشرك بضرب الرقاب ليست منطقاً إسلامياً بأي وجه من الوجوه وإنما هي حصيلةُ قراءةٍ غبيةٍ لمقاصد الشريعة، وخلطٌ فاضحٌ بين أحكام الحرب وأحكام السلام.

من فتاوى التكفير

وفي إشارة ضرورية لأسباب انتشار ثقافة التكفير فبالإمكان الإشارة إلى فتوى مشهورة نرويها عادة دون الانتباه إلى الجانب السلبي الذي قد ينحرف إليه فهم الناس، وهي فتوى ابن تيمية في نواقض الإسلام العشرة، وهي فتوى اشتهرت بين الناس اشتهاراً عظيماً ويتم اليوم طباعتها باستمرار، ونراها أحياناً معلقة على جدران المساجد، وكان ابن تيمية قد نصَّ فيها على أن هذه العشرة خصال كل واحدة منها مكفرة، وهي تستلزم حكم الردة في حقِّ من ارتكب واحدة منها، ومن ثم هدر دمه وماله! وعدَّ منها الآتي:

أما نواقض الإسلام فهي كثيرة، وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى في باب حكم المرتد أن المسلم قد يرتد عن دينه بأمور وأنواع كثيرة من النواقض التي تحلُّ دمه وماله، ويكون بها كافراً كفراً أكبر خارجاً من الإسلام، ومن أخطرها وأكثرها وقوعاً عشرة نواقض، وعدَّ من هذه العشرة: الشرك في عبادة الله تعالى، ومنه: الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو لقبر، وراح يذهب في تفصيل الشرك إلى حدِّ قوله: ومن الشرك شرك المحبة لغير الله!

وعدَّ من أنواع الكفر الأكبر أيضاً: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم، ويسألهم الشفاعة، ويتوكل عليهم، فقد كفر إجماعاً، أما الثالث فعد منه من لم يكفِّر المشركين أو شكَّ في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر! وعدَّ من المكفرات أعظم الكفر من اعتقد أن هدي غير النبي أكمل من هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ويدخل في هذا الناقض: من اعتقد أن الأنظمة والقوانين التي يسنُّها الناس أفضل من شريعة الإسلام، أو أنها مساوية لها، أو أنه يجوز التحاكم إليها ولو اعتقد أن الحكم بالشريعة أفضل.

ويدخل فيه أيضاً من يرى أن إنفاذ حكم الله في قطع يد السارق أو رجم الزاني المحصن لا يناسب العصر الحاضر، ويدخل في ذلك أيضاً كل من اعتقد أنه يجوز الحكم بغير شريعة الله في المعاملات أو الحدود أو غيرهما وإن لم يعتقد أن ذلك أفضل من حكم الشريعة!

ويمكنك لقراءة عجائب أشد فظاعة أن تعود إلى محرك بحث غوغل والسؤال بين حاصرتين عن كلمة: (نواقض الإسلام) أو (هدر دمه وماله)، وعند ذلك ستعرف تماماً إلى أي مدى يصبح دم الناس وأعرضهم ملهاة مبكية لدى تيار التكفيريين الذين يزعمون أنهم ينتمون إلى دين نصَّ قرآنه الكريم بوضوح أن من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً!

مثلاً: فبالإمكان قراءة كتاب الشييخ الطرطوسي: التكفير شرع الله فأين تذهبون؟! على الرابط:

http://www.altartosi.com/articles/index.html

وبالإمكان أيضاً الاطلاع على موسوعة كاملة في ثقافة التكفير في موقع دار الإسلام على الإنترنت للشيخ سعيد بن رهف القحطاني.

وعندما تقرأ مثلاً نواقض الإسلام العشرة التي ينص ابن تيمية أنها توجب هدر دمه وماله ستكتشف للتو أنك ارتكبت ثلاثة أو أربعة منها على أقل تقدير!

وببساطة يمكن هنا لأتباع التيار التكفيري أن يتم تكفير المجتمع برمته، على أساس ارتكاب أحد هذه النواقض.

فالاحتكام إلى قانون وضعي يعني ببساطة قبول القوانين التي تشرعها البرلمانات ومجالس الشعب، وهو وفق قائمة نواقض الإسلام كفرٌ أكبر ولو اعتقد أن الشريعة أفضل! ويدخل فيها من لم يجزم بكفر الكافرين أو شك في كفرهم، ولعلك تعلم بأنه لا يقصد هنا بالكافرين أعداء الأمة من الصهاينة؛ بل يقصد بالطبع شرائح كبيرة من المواطنين الذين نتقاسم معهم رغيف الخبز،

ويدخل فيه من توجه إلى قبر بالتعظيم أو استغاث به أو ذبح عنده، وفي ذلك يدخل حكماً من يرى العدول عن قطع يد السارق إلى سجنه! وعن رجم الزاني إلى حبسه، وأمثال ذلك فهذه كلها يقال فيمن فعلها عاصٍ آثم، ولكن يقال فيمن اعتقدها كافر مرتد.

والأمثلة هنا تتوارد بكثرة فمن ترك الصلاة مثلاً صُنِّفَ فاسقاً، ولكن من شك في وجوبها أو مواقيتها فقد كفر كفراً أكبر وحلَّ دمه وماله! ومن تركت الحجاب صنفت فاسقة، ولكن من شكك في وجوبه فقد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، وبذلك فقد كفر كفراً أكبر، وحتى لا أتهم بالمبالغة فإنني أحيل هنا مثالاً إلى ما كتبه تقي الدين الحصني في باب حكم تارك الصلاة، وهو كتاب لا يزال يطبع وينشر عندنا في سوريا، ويعتمد مقرراً تدريسياً؛ إذ ينصُّ مباشرة على وجوب قتل تارك الصلاة، ولن يغني شيئاً عند التكفيريين أن تقول لهم هذه مسؤولية الحاكم ولها شروطها وضوابطها؛ إذ ما أسهل أن يقول تيار التكفير إن الحاكم قد فرَّط في هذا الواجب الشرعي ولم يقم بقتل شعبه كما هو حكم الله! وبذلك فهذه مسؤولية شباب الجنة الأبرار ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

هل يعقل أن تتصور أن تكون هذه الثقافة التكفيرية تنتمي إلى الدين العظيم الذي قال فيه الله سبحانه: ﴿ولَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ [النِّسَاء : ٩٤]. إنني أعتقد بصراحة أن محاسبة الناس على شأن اختيارهم الاعتقادي ليست شأن الناس ولا شأن الدولة، ولا هي شأن الحاكم ولا شأن المحكوم، إنها فقط شأن الله، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦﴾ [الزُّمَر : ٤٦].

هل سندرك أن مسؤولية المواجهة مع التكفيريين هي في المقام الأول مسؤولية الخطاب الديني الشجاع، الذي سيسأله الله والتاريخ عن مسؤوليته في التصدي لتحريف الغالين وانتحال المبطلين.

حق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة

يؤسس هذا المقال لحقٍّ فريد من حقوق الإنسان طرحته في مؤتمر المجلس العالمي للدعوة والإغاثة الذي انعقد في القاهرة بمشاركة قادة دينيين من العالم الإسلامي والمسيحي وحقوقيين وخبراء من الأمم المتحدة، وهو في الأصل طموح كبير آمل أن يجد صداه عند المهتمين بحقوق الإنسان.

إن حقوق الإنسان إنجاز إنساني مبارك سعى إليه الإنسان منذ كان الإنسان، وتألق في أيام عظيمة في التاريخ بدءاً من حلف الفضول الذي شارك فيه النبي الكريم في دار عبد الله بن جدعان إلى أن أُعلِن في يوم سعيد هو العاشر من كانون الثاني عام ١٩٤٨؛ إذ تبنت الأمم المتحدة إبان تأسيسها وثيقة إعلان حقوق الإنسان.

ومع أن الوثيقة جاءت ملبية لكثير من طموح الإنسان الذي عانى طويلاً من القهر والعسف والظلم، فإنه لا يصح النظر إليها على أنها نصٌّ معصوم، وهو كذلك، فالدراسات تتوالى في الإشارة إلى بعض مكامن النقص والضمور في تلك الوثيقة التاريخية ، ولعلَّ أوضح الأمثلة على ذلك هو قصور تلك الوثيقة في الإشارة إلى حقِّ الإنسان في مقاومة الاحتلال والقهر وهو ما أدَّى إلى اختلاط المفاهيم بين المقاومة والإرهاب، وتمادي الغطرسة والمظالم في

الأرض بحجة قمع الإرهاب، وكذلك التفريط الأكيد في الإشارة إلى حقِّ الإنسان في أن يولد بين أبوين وينعم بربيع الأسرة الدافئ، وهو ما يقتضي تحريم الزنا وتجريمه.

المثال الذي نقدمه هنا هو جانب آخر من جوانب القصور في وثيقة حقوق الإنسان؛ إذ لم تشر الوثيقة إلى حقِّ الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة، ولا تشير القوانين العالمية إلى حق المقاتل في التمرد إذا ما كانت الحرب من وجهة نظره غير عادلة؛ إذ يعامل الجندي المتمرد في قوانين العالم كلها معاملة واحدة من حيث النظر إليه على أنه متمرد فارٌّ من الزحف، الأمر الذي جعل كثيراً من التشريعات تعامله على أساس أنه ارتكب الخيانة العظمى.

إن القوانين لا تحمي الجندي الذي يرى أنه قيادته السياسية خانته وأمرته بتوجيه بندقيته في غير وجهتها الصحيحة، فالجندي الأمريكي مثلاً أقسم أن يحمي العلم الأمريكي ويدافع عن نجومه الخمسين المتمثلة في الولايات المنضمة انضماماً تاماً إلى أمريكا، وهو في ذلك مخلص لمبدئه، ولكنه يجد نفسه فجأة مدعواً للالتحاق بقوات المارينز (التدخل السريع) لضرب أفقر دولة في العالم دولة تبعد عن تراب بلاده أكثر من عشرة آلاف ميل، وعليه أن يقصف بطائرته مواقع مدنية ومشافي وقرى ومدارس في حرب معلنة على الإرهاب، ليس خافياً أن أهم أهدافها هو الانتقام للانتقام فحسب، والسيطرة على تلة

أخرى من التلال الموصلة إلى المياه الدافئة ومراقبة المارد الآسيوي المتحفز، في قصد واضح لتأمين مرحلة أخرى إضافية من الاستعلاء الأمريكي.

إن القانون الأمريكي لا يحمي المقاتل الشريف الذي لم يقتنع بغايات هذه الحرب الظالمة التي تجهز الآن لتمتد إلى بلاد لا تختلف في شيء كثير عن أفغانستان في فقرها وضعفها كالصومال واليمن والعراق، وكذلك الدول التي لا تزال تقول لا للكيان العبري الهجين المنزرع في قلب الشرق الأوسط.

محمد علي كلاي لم يقتنع بحرب أمريكا في فيتنام، لم يكن يفهم لماذا يتعين عليه أن يمضي إلى آخر الأرض لتغليب فريق سياسي على آخر وفرض حكومة على الناس تنزل بالباراشوت وفق إرادة العم سام، ومع أنه بطل العالم ولكن ذلك لم يشفع له بالمرة، وقامت السلطات الأمريكية بتجريده من لقبه العالمي وملاحقته قانونياً وسجنه، إلى آخر المسلسل المعروف.

ماذا لو ملك المحارب حقَّ التمرد على الحرب الظالمة؟

إن السؤال البدهي الذي يطرح نفسه هنا هو من الذي سيقرر طبيعة الحرب المقترحة أهي عادلة أم ظالمة؟ إن العدالة تقتضي أن يقرر ذلك صاحب المصلحة الحقيقية من قرار هذه الحرب وهو المقاتل الذي يدفع حياته ثمناً لهذه

الحرب، وهذا يقتضي أن يترك له الخيار أن يقرر طبيعة الحرب القادمة، طبعاً من حقِّ الدولة أن تمهد بالحملات الإعلانية غايتها ومبرراتها لنشوب الحرب ولكن عندما لا تبلغ قناعات الناس فالمسألة إذن ليست على الوجه الذي يختاره آمر القوى الحربية، إنها في المقام الأول قرار المقاتل نفسه الذي لا ينبغي أن يحمل إلى حرب ليس له فيها أرب ولا غاية!

الصديق كامل الشريف أمين المجلس العالمي للدعوة والإغاثة قال لي: إذن سيقول المحارب دوماً أنا غير مقتنع بالحرب وسيحميه القانون وعند ذلك ستتوقف الحروب، وتتآكل حقوق الشعوب التي لن تجد من يدافع عنها؟

قلت: أما توقف الحروب فهذا أمل لا أظن أنه يزعج أحداً؛ بل هو غاية يتغياها الشرفاء، وأما حقوق الأمة فإن التربية العقائدية للمقاتل وعدالة القضية ستجعل من يستفتي في خيار الحرب بصيراً بالقرار الصائب الذي ينبغي اتخاذه في هذه الحال، ثم ما فائدة جيش من المنافقين يقاتل في حرب لا قناعة له بأهدافها وغاياتها؟

إن المقاتل العربي اليوم لو تمَّ أخذ رأيه الصريح في الحرب مع الكيان الصهيوني إذا تم تحقيق التوازن الاستراتيجي فإن من الطبيعي أن ينادي بالحرب أفراد

الجيوش العربية العقائدية، ولكن النتيجة ستكون مختلفة لو أتيح للمقاتل العراقي أن يقول رأيه قبل أن يؤمر بغزو الكويت مثلاً.

عندما مضى النبي الكريم بجيشه الناشئ لمواجهة عير قريش في بدر سيرت قريش فجأة جيشاً قوامه ألف مقاتل لمواجهة المسلمين، كانت المواجهة إذاً قدراً حتماً ومع ذلك فإن النبي الكريم لم يشأ أن يخوض الحرب إلا بعد أن قال مرات عدَّة: «أشيروا عليَّ أيها الناس!» ومع أن أبا بكر وعمر والمقداد أشاروا عليه بخوض الحرب ولكنه ظلَّ يقول: «أشيروا علي أيها الناس!» حتى قام سعد بن معاذ فقال: إنا قد آمنا بك واتبعناك، فامضِ لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك!

لقد كان يريد أن يستمع بشكل صريح إلى صوت أولئك الذين قد تراق دماؤهم في هذه الحرب؛ إذ هم دون سواهم أصحاب المصلحة الحقيقية في إعلان الحرب والسلم، ولذلك لم يكتفِ برأي المهاجرين الذين لا يبدو لهم أصلاً خيار غير المواجهة، ولكنه أراد أن يستمع إلى رأي الأنصار الذين كانوا يملكون خيارات أخرى غير الحرب.

فهل تعكس الحروب التي تشتعل كلَّ حين قراءة صحيحة لإرادة المشاركين فيها؟

عندما يعلم الديكتاتور أن قرار إعلان الحرب حقٌّ من حقوق الإنسان فإنه سيعيد بلا ريب حساباته التي يمهد بها لإشعال الحرب، وسيملك أن يقدر تقديراً صحيحاً كم هو عدد جيشه بدقة فيما لو أراد الغزو شرقاً وكم سيكون عدده لو أنه قرر الغزو غرباً.

إن السعار المحموم الذي يغلي اليوم في دماغ الإدارة الأمريكية باتجاه إشعال الحرب ضدَّ العراق لا يمكن أن يكون كذلك لو أتيح للمقاتل الحقيقي أن يقول كلمته في هذا الصراع، ثمة أمريكيون كُثُر انتسبوا بحماس إلى الجيش الأمريكي رغبةً في حماية تراب بلادهم، ولكنهم اليوم يكتشفون أنفسهم على المدن العائمة المتوجهة إلى العراق بعد سبع بحور وسبعين بلداً لقصف شعب آمن لايزال يعاني من الجوع والاستبداد والحصار منذ نحو عقدين مرشحة للازدياد، ثم يفاجئ وهو في أم الحريات أنه ليس حراً في أن يقتل ويقتل أو يكف عنهما، وإنما عليه أن يلتزم بإرادة القيادته على الرغم من أنه لا يشعر بأي قناعة أو نبالة أو شرف في أهداف حكومته القذرة المعلنة دونما خجل من السيطرة على مصالح أمريكا الحيوية.

متى ستقوم القوانين باقتراح الآلية المناسبة التي تجعل أمر المشاركة في أيّ حرب حقَّاً مقدساً من حقوق الإنسان، لا تملك الدولة مصادرة رأي الفرد

فيه، ولا تملك حقَّ إعلان الحرب على أحد إلا بقدر عدد الذين يوقعون على وثائق المشاركة في الحرب المقترحة ويتولى القانون حماية المتمرد الذي لم يقتنع بالهدف العبثي للحرب المقترحة؟

إن قرار المشاركة في الحرب هو المكافئ الموضوعي لقرار المشاركة في الموت، فكيف يمكن الحديث عن حقوق الإنسان إذا كان هذا الحق لا يزال غائباً أو غائماً يتولاه نيابة عن الناس أفراد أقوياء يجيدون القراءة في الخرائط ويملكون الحساسية المفرطة باتجاه توجيه أحجار الشطرنج إلى المياه الدافئة والأرض القادرة على تنمية ثرواتهم وكنوزهم، وهم في الحجرات المكيفة المرفهة في قيادات الأركان تسلط عليهم الأضواء في العواصم الكبرى؟

هذه الفكرة لا تعدو أن تكون إلحاحاً على تجنيب الإنسان جزءاً من كوارث الاستبداد وسأكون سعيداً إذا أتيح لهذه الفكرة أن تناقش وتنتقد حتى تنضج أو تحترق!

هولو... جزيرة الهول[1]

أهو اشتقاق صحيح ذلك الذي نميل إليه هنا في تخير اسم الجزيرة التعيسة، أم هو محض مقاربة لهول الواقع المأساوي الذي يعيشه الشرق الأقصى ذو الآمال الإسلامية؟

إنه تشويه آخر لمفهوم الجهاد يتكرر في الشرق، يختار اسماً عربياً ذا دلالة (أبو سياف)، في مظاهر لا تبشر بخير على الإطلاق عند مفتتح القرن الجديد.

فهل نقول أيضاً إن الغرب يمارس تشويه الإسلام، أم نقول إن الشعوب الإسلامية هي التي تمارس الجهاد بطريق خاطئ، أم نقول إنهما معاً؟

يمثل الشعور الديني أكبر دافع وجداني يحرك كفاح الإنسان، وهو أقرب الوسائل منالاً لدى أولئك الذين يبتغون بناء ممالك من الشهرة على جماجم الناس، وسيتخذ بكل تأكيد جانباً ظلامياً عدوانياً، ما لم ينهض التوجيه الديني بدوره الرسالي المطلوب منه على أتم وجه.

[1] كتب هذا المقال عام ٢٠٠١ في شهر أيار حين كانت جماعة أبو سيَّاف الفلبيبنية المسلحة تحتجز إحدى عشر رهينة فلبيبنية وتطلب فداءهم بالمال من الحكومة الفلبينية.

وإلا فما الذي يحمل أفراد جماعة أبو سياف الذين لا يكف الإعلام عن تسميتهم بالجماعة (الإسلامية) على حمل السلاح والتهديد بقتل السياح أو بقطع أعناق أطفال فيليبينيين بعمر الزهور ما لم تستجب الحكومة لمطالبهم، في إقامة دولة (إسلامية) مستقلة!

وحتى تبرهن هذه الزمرة عن وعيها بالإعلام فإنها تصدر كل يوم شريط فيديو جديد للمساكين وهم يتجرعون غصص الموت أمام الكاميرات، بحيث لم يبقَ مشاهد في الأرض إلا ودمعت عيناه لمرأى آلان والر وهي (تموت) أمام عدسة الكاميرا من دون أن تتحرك لدى عصابة أبو سياف أي هزة ضمير، من دون أن يدري هؤلاء الأغبياء أي إساءة بالغة تعود بها مواقفهم هذه على القضايا التي يظنون أنهم يقاتلون من أجلها!

ثم يقفز هؤلاء الغادرون من جزيرة إلى جزيرة ينقلون رياح الموت ويحتجزون ما تيسر من الرهائن أطفالاً نساءً وكباراً وصغاراً وشيوخاً وقساوسة ومسلمين وبوذيين ليفاوضوا عليهم مقابل ما تيسر أيضاً من المال والمطالب السياسية.

إن ما يلزم توكيده هنا أن هذا الفهم الخارجي للإسلام ليس له رصيد من القبول عند المسلمين؛ بل يجب القول إن هذا المفهوم الخاطئ للجهاد يجابه

باستنكار واسع في العالم الإسلامي على أوسع نطاق، يتوالى في تقرير مجافاته للإسلام أبناء الأمة الإسلامية كافة بما فيها من تيارات متشددة أو متسامحة.

أين هذا الواقع المأساوي من الخطاب التاريخي لأبي بكر الصديق وهو يوجه جيش أسامة الذي كان ماضياً لمحاربة المستبد الرومي الذي يحتل أرض الشام منذ أكثر من سبعة قرون، ولا يفتأ يقتل من يصل إليه من سفراء النبي الكريم، ويضرب أعناقهم بالسيف، يوم قال أبو بكر: يا أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

لقد كان خطاب الجهاد الإسلامي واعياً لمسؤولية المجاهدين، فالإنسان حين يملك آلة الموت تتحرك عنده غرائز العدوان، وقد يهون الدم لمرأى الدم، فجاء الخطاب واعياً حتى لرعاية الشجر والحيوان، وهو معنى وافٍ بالوعي بحقوق الإنسان وكرامته حتى في أرض العدو إلى حدِّ رعاية البيئة والحيوان في أرض العدو!

يورد الطبري في تاريخه أن عمر بن الخطاب ﷺ استعمل عمير بن سعد والياً على حمص فأقام فيها محمود السيرة حسن الأحدوثة، ثم دعاه إليه في محاسبة دورية، فلما اطمأن إلى حسن سيرته أراد إعادته إلى حمص مرة أخرى، لكنه قال: لا يا أمير المؤمنين، والله لا أعود أبداً، لقد هلكت وأهلكت، وأتيت أمر سوء ما أدري ما الله صانع بي، قال: وفيمَ ذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين، لقد قلت لذمي قبحك الله!

لقد كانت كلمة واحدة أساء فيها لرجل من أهل الكتاب كافية ليشعر أن خدماته كلها لم تعد مبررة، وأن الأفضل له أن يعتزل الحكم ويخرج من التاريخ خشية أن يتورط مرة أخرى في مثل هذه المظلمة!

إنها المبادئ التي جعلت مستشرقاً منصفاً مثل غوستاف لوبون يقول: ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب.

من وجهة نظري كانت هذه هي المواقف التي أقنعت الجماهير في بلاد الشام بالتحول إلى الإسلام، وكان ذلك من الناحية العملية أشدَّ تأثيراً في النفوس من ألف جيشِ فتحٍ مدججٍ بالسلاح، وهي التي كانت تجعل الشعوب هنا ترى في الفاتحين منقذاً لهم من جور الروم إلى عدالة الإسلام.

فإلى متى يظل هذا الإسلام الذي هو رصيد المحبة والسلام رهين الأطماع الهائجة، تحركه في كلِّ سبيل من أجل بلوغ مطامع سياسية!

وهل يشفع لهؤلاء القتلة أن يخطوا بصدر راياتهم كلمة (الله أكبر) وهم يستهترون بأرواح الناس، ويقدمون أبشع صورة للبغي والحقد الأسود باسم الدين؟

دماء في سامراء[٢]

قراءة في تداعيات الفتنة

تم تشطير الأمة الإسلامية في التاريخ إلى سنة وشيعة، ثم انشطروا إلى صوفية وسلفية، ثم انشطروا إلى ظاهرية ومؤولة، ثم انشطروا إلى أصولية وعلمانية، وعلى الرغم من التقسيم الحدي الصارم في كل مرة ولكن ظلت الدماء معصومة على الأقل منذ أكثر من خمسمئة عام، ولكن ما الذي فجَّر العنف في أرض العراق بالشكل المأساوي الذي رأيناه في الأسبوع الماضي؟

من المناسب أن يعرف القارئ الكريم أن الانشطار إلى سنة وشيعة كان في أعقاب الفتن التي عصفت بالأمة في أثناء القرن الأول الهجري على خلفية تحول الخلافة عن أهل البيت وهو خلاف لم يعد له ما يبرره بعد أن أصبحت الخلافة كلها حدثاً ماضوياً، وأما الفقه الذي نتج عن الطائفتين فهو شكل من أشكال الغنى الفقهي الذي سيغني المدرستين إذا تحررتا من التعصب والانغلاق.

[٢])كتب هذا المقال بعد تفجير مرقد الإمام العسطري في سامراء ٢٠٠٦/٢/٢٢ فكانت الشرارة التي اندلعت منها أعمال طائفية دموية في العراق حصدت الآلاف من القتلى.

أما القسمة إلى صوفية وسلفية فقد تحددت ملامحها في القرن السابع في أعقاب الغزو الصليبي والمغولي؛ إذ تحدد شكلان مختلفان للمواجهة للحفاظ على الذات: الأول سلفي يلتزم بمواجهة البدع والعودة إلى منهج السلف، فيما اختار الآخر إخصاب الروح عن طريق الذكر والتأمل والسلوك، وكان الغزالي وابن تيمية أبرز أعلام المواجهة في كل من الطائفتين، وقد تبادل كل من الفريقين اتهام الآخر وتكفيره وتفسيقه.

أما القسمة إلى ظاهرية ومؤولة فهي تختصر الصراع بين أهل الرأي وبين أهل الحديث ولاحقاً الصراع بين الفقهاء وأهل الظاهر، وتتوضح ملامح الصراع حين اختار الأشاعرة التأويل فيما أصر الوهابية على التزام ظاهر النص دون أدنى تأويل، ولا تزال هذه القسمة إلى اليوم تطبع شكل العلاقات بين التيار الديني في الخليج وأبناء المذاهب الإسلامية التقليدية في بلاد مختلفة من العالم.

أما القسمة الرابعة فهي حديثة نسبياً فالأصولية تلتزم منهج العودة إلى النص ووجوب تحكيم ظاهره في الحياة فيما يرى التيار العلماني الإسلامي (وهو مصطلح سيواجه نقداً غير قليل) أن النص نور ورشد وخير ولكن تطور الحياة يجعلنا نتجاوز ظاهر النص إلى روحه ومقاصده، وقد برزت تناقضات هذه

القسمة الخطيرة، فيما حرره تيار الحاكمية في الخمسينيات الذي رأى أن المجتمع الإسلامي يعيش حالة ردة بسبب موافقته على التشريع الوضعي، والسعي للتأليف بين التشريع الوضعي والروح الإسلامية.

بالطبع لا يمكن هنا أن نفصل القول بأكثر من هذا، ولكن ما يلزم التأكيد عليه هو أن هذه التقاسيم الأربعة متداخلة، فهناك ظاهرية ومؤولة وصوفية وسلفية وعلمانية وأصولية في كل من السنة والشيعة، وعليه فإنها تنشئ متوالية هندسية تذهب في التجزؤ والتذرر إلى غاية بعيدة يصبح معها الكفاح من أجل وحدة حقيقية عناء في غير طائل.

ولكن هذا التوصيف الذي أحسبه دقيقاً لحال الأمة لم يتسبب في إنشاء أي حرب طائفية منذ قرون بعيدة، وظلَّ الخلاف لا يتعدى الاتهام في أكثر الأحيان، وكانت تقتله المجاملة التي لابدَّ منها، وفي أسوأ الأحوال كان يؤدي إلى تمترس كل من الطائفتين وراء أسوار مذهبه لتكون القطيعة هي أسوأ ما تنتجه الخلافات.

ولكن الفتنة التي نراها اليوم في العراق هي قسمة من نوع آخر، إنها قسمة تستبيح الدم والعرض والمال، وتضرب في المساجد والمراقد وتقتل الأبرياء وتطحن الناس دون حساب، فكيف يمكن وصف ما يجري؟

إنه من اللحظة التي دخل فيها أول جندي أمريكي إلى أم قصر انقسمت الطبقة السياسية في العراق على الأقل إلى قسمين متلاعنين متربصين: متعاون مع الاحتلال ومقاوم له، وعلى الفور انتقلت القسمة إلى ثنائية حادة لا مكان فيها لأدنى تسامح: خونة أو إرهابيون؟ وأصبح القتل محلاً مشروعاً لكل فريق من الفريقين، وسادت ثقافة أقتل أو تقتل! ولم يستثنِ المقاومون شيئاً من الطرف الآخر فدخل في لعنة الخيانة أفراد ومنظمات وصحافيون وإعلاميون وطوائف وجيوش، وحكم على الأمم المتحدة نفسها بالخيانة لمجرد تعاونها مع الوضع القائم بالعراق، وقضى سيرجيو دي ميلو تحت الركام في تفجير رهيب، واستمرت لعنة القتل تلاحق أعداء مفترضين في خيال تيار الغضب وانصبت لعنات الحقد على الصحافيين، وقتلت عن عمد أطوار بهجت ثم طوردت جنازتها بالرصاص، وخُيِّل للذين يسكبون النار على موكبها أنهم أيضاً يقاومون، ولكن يقاومون ماذا؟ وانفجرت أسواق وجسور وحوزات ومساجد ومجالس عزاء، ومضت موجة الموت تدمر كل شيء بأمر ربها، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وازداد شراد العراقيين ومعاناتهم في الأرض ولا يبدو أن الأفق القريب يحمل أية أنباء سارة لأهل العناء والأسى في العراق.

وفي أكثر من ألف يوم من الاحتلال لم تنقطع المعاناة؛ بل إنها اتخذت منحى خطيراً مباشراً بتفجيرٍ آثمٍ لئيمٍ لمرقد الإمامين علي الهادي والحسن

العسكري في سامراء الأمر الذي أشعل فتنة مجنونة ألهبت حتى كتابة هذه السطور أكثر من مئة وتسعين مسجداً في العراق، و٣٩٧ قتيلاً في عصف لا يبقي ولا يذر، سفحت فيه دماء بريئة مسكينة وهدمت صوامع وجوامع، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً.

فمَن المسؤول عن هذه القسمة الآثمة التي طوَّحت بكل الآمال في خلاص قريب؟

لا أظن أن أحداً يمكنه أن ينازع في براءة اختراع الموت هذا الذي نتج عن القسمة المجنونة، فهي ماركة مسجلة بامتياز للاحتلال الأمريكي، وهو تقسيم يختلف عن كل أشكال الفرقة التي عرفناها من قبل!

والسؤال الآن برسم الأشرار الذين طافوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد وجاؤوا بالأساطيل الأمريكية يستنشدون بها الخلاص فجاءتهم تأكل الأخضر واليابس وجعلت عراقهم الجريح كالعصف المأكول، فهل يشفع لهؤلاء إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض أن يقولوا إنما نحن مصلحون؟ وهل يشفع لهم وهم يتولون في الأرض ويهلكون الحرث والنسل أن يقولوا ما أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً؟

عمره المحتل ما جاء البلد بخير، وأي شيء يستطيع الغياث الأمريكي أن يحمله للمستعطفين إلا المزيد من الخراب والموت تحت شعارات الحرية والديمقراطية البراقة، ما الذي يملك العراقي أن يفعله في مواجهة الفتنة الطائفية العاصفة؟

أتمنى أن يسمع العراقيون اليوم أكثر من أي وقت مضى نداء جودت سعيد، فيلسوف الرحمة الصوت الصارخ في برية الأحقاد: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [المَائِدَة : ٢٨].

إن ثقافة الجهاد في الإسلام تحمل معنيين متجاورين دقيقين غاية الدقة، سلُّ السيوف في الجهاد، وكسرُ السيوف في الفتنة! ولا أشك أبداً أن توصيف الحالة العراقية اليوم هو المشهد الثاني.

إنه ليس خياراً سهلاً أن تنجز ما أوصى به رسول الله أبا ذرٍ حين قال ﷺ: «كيف أنت إذا أصاب الناس موتٌ يكون البيت فيه بالوصيف؟» (أراد أن الرجل يشتهي الموت لكثرة القتل، ولا يدري القاتل لم قتل ولا المقتول لم يُقتَل) قال: قلت: ما خار الله لي ورسوله، قال ﷺ: «عليك بالصبر»، ثم قال لي ﷺ: «يا أبا ذر»، قلت: لبيك وسعديك، قال: «كيف أنت إذا

رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم؟»، قلت: ما خار الله لي ورسوله، قال: «عليك بمن أنت منه»، قال: قلت: يا رسول الله، أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي؟ قال: «شاركت القوم إذاً»، قال: قلت: فما تأمرني؟ قال: «تلزم بيتك»، قال: قلت: فإن دخل علي بيتي؟ قال: «فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألقِ ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه».

«أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ كحرمةِ يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، كل المسلك على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه، بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقِّر أخاه المسلم».

تحية الآلام للشعب العراقي الصابر المجاهد، تحية الرحمة والرجاء للأم العراقية الصابرة وهي تلملم الجراح وتطالب بالرحمة، ورحم الله رجلاً أغمد سيفه وفتح قلبه، وحاور أخاه، وأحيا ثقافة هابيل في عصر قابيل.

لا شرفَ لبندقية[٣]

أيُّ رسالة مجنونة تلك التي حملها المتقنعون بالأكياس السود المثقوبة عند عيونهم وأنوفهم، والحاملون للبنادق المجنونة يقصفون في كل وجه، يصرخون بأشرف كلمات الثورة، ويمارسون أشرس أشكال الثأر، ويريقون الدم الفلسطيني وينصرفون بصيحاتهم وصراخهم وغضبهم، تلاحقهم باللعنات وجوه نساء تترمل، وأطفال تتيتم، وأمهات ثكالى، وأرضٌ من دم أحمر لا يدري المقتول لم قُتِل ولا القاتل لم قَتَل، وتشترك فيها أمي وأمك والنائحات الفلسطينيات في اللطم والعويل.

لست أدري إن كانت هذه الكلمات ستصل سمعهم، ولست أدري إن تبقَّى لديهم سمع أصلاً لينصتوا من أزيز الرصاص الفاجر إلى صوت العقل وهم يوقدون الحطمة الفاجرة في أرض الرباط، ويشعلون غزة وخان يونس ورفح بسعار القتال المجنون الذي لا يخدم أحداً إلا العدو، ومع ذلك فهم يستميتون في الدفاع عن جنونهم الملعون في ساحات الموت القذرة.

[٣] كتب هذا المقال في أثناء الفتنة الداخلية التي عصفت بين فتح وحماس في غزة في حزيران ٢٠٠٧، وأدت إلى مئات القتلى والجرحى، وخروج فريق السلطة الفلسطينية من غزة.

ولأن هذا المقال غير قادر على الوقوف بين المتخاصمين في ساحات القتال الأعمى في خان يونس وغزة، ولأنه ليس الجهة المعنية بالحجز بين المتقاتلين، ولكن بإمكانه على الأقل طرح المسألة من الجانب الشرعي؛ إذ جاءت بيانات الشريعة الكريمة واضحة وفاصلة في التفريق بين الفتنة وبين الجهاد، وستشعر معي عندما نتتبع النصوص الشرعية أن النبي الكريم كان يحدثك عن الفتن كما لو كان تنقل له المشاهد من غزة وسامراء عبر أشد المراسلين خبرة واحترافاً وشجاعة.

أشعر بالحرج وأنا أفتح ملفاً فقهياً عن أحكام الاقتتال الداخلي، فأنا لا أجهل أنه في ساعات الفوضى والاقتتال الداخلي لا يهتم أحدٌ إطلاقاً بالترجيح بين الأدلة أو النظر في مآلاتها ومراميها، فقد نطق الرصاص فما يباح كلام، وجرى القصاص فما يتاح ملام.

ولكن لابدَّ للمؤمن الذي يراقب ما يجري في أرض الرباط، أن يبحث عن دليل شرعي ليحدد موقعه من صراع مجنون كهذا.

الأصل الذي يرسم واجب المسلم في الفتن هو قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، وأمام نصٍّ صريح صادم كهذا لا يحتمل أي تأويل، ثارت سلسلة من التساؤلات الكبيرة، وتناوب الأصحاب

على استيضاح الأمر من الرسول نفسه، وقال قائلهم: يا رسول الله، هذا القاتل فماذا ذنب المقتول؟ والجواب النبوي لم يتأخر عن البيان وكشف النبي الكريم: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»!

وهكذا فقد وقفت الشريعة موقفاً صارماً قاسياً في رفض الاقتتال الداخلي، واستخدمت أقسى عبارة تهديد ووعيد في حقِّ المنغمسين في القتال الداخلي وهي الوعيد بجهنم للقاتل والمقتول جميعاً، وكان ينبغي لأمة تؤمن بربانية مصدر التشريع أن يصعقها هول الوعيد هذا فتكسر السيوف حال الفتن وتعتزل الناس.

ليس التكليف بترك السيف في الفتن أمراً سهلاً؛ بل هو بكل تأكيد أقسى من الأمر بامتشاق السيف يوم المعركة، أو قل إن شئت إن الأمرين في الشدة والعناء سواء، ولكن علينا أن نتذكر أن الشريعة التي أمرت بسلِّ السيف يوم الجهاد أمرت بكسر السيف يوم الفتنة، وقد جاءت بيانات النبي الأكرم واضحة صريحة في ذلك، حين جاء الصحابي الكريم حذيفة بن اليمان يسأل النبي الكريم عن موقف المؤمن أيام الفتن، وتماماً كأنما كان يسأله عن الواقع الفلسطيني اليوم، عن نزاع فتح وحماس، كأنما كان يسأله عن فتح أم الشهداء وعن حماس رمز المقاومة.

قال حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنَّا كنَّا في جاهلية وشر، فأكرمنا الله بمبعثك فهدانا إلى هذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال ﷺ: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك يا رسول الله؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «تعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك».

والأمر هنا صريح وواضح في وجوب اعتزال الفتنة كلها، مهما بدا لك هذا الخيار مرهقاً بالأوهام فإن الأمر الذي لا شك فيه أن المسلم مأمور بالهرب من الفتن، وقد قال ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتتبع بها شعف الجبال يفر بدينه من الفتن».

إن الخروج من مستنقع الفتنة وإن بدا مطلباً سلبياً ولكنه في العمق أكثر من إيجابي، وهو يكشف لك عن إرادة واضحة للرسول الأعظم ﷺ لحقن الدماء مهما كانت المبررات والأهداف، ولو كان ذلك على حساب الكرامة الشخصية للأفراد وهو الأمر الذي اقتحمه البيان القرآني إلى الغاية بالتعبير الصريح: ﴿يُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائِدَة : ٥٤].

شخصياً أشعر كل يوم بمزيد من الشكوك بشأن استخدام السلاح في أي معنى، وأتساءل إن كان في ذنوب البشر ذنب أعظم من ذنب من أسهم في صناعة الموت المتفجر على شكل بندقية أو رصاص أو متفجرات، ولكن يردني عن شرادي معرفتي بأن البشرية لم تكن في عافية من داء القتل والهلكة قبل اختراع البارود، ويؤكد لي هنا أن المعرفة في حدِّ ذاتها محايدة ولكنني أتساءل إلى أي مدى يمكن أن تكون صناعة الموت خدمة للإنسان؟

شخصياً لم أمسك في حياتي مسدساً ولم أطلق رصاصة واحدة في أي اتجاه، وأتمنى أن ألقى الله على ذلك، ولست في حاجة لمن يذكرني بأن هذه الأحلام الطوباوية خيالٌ سارح لا يجوز أن يكون منهجاً لحراسة الأرض، وهو محض هوى تهواه ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، ولغلب الأشرار على الأرض، وأصبح الأخيار لقمة أسهل للموت، ولانتشرت الفوضى والخراب والقتل والموت في كل وجه.

وهنا يتم التبرير بكلمات مشهورة معروفة: الاستعداد للمعركة يحول دون نشوب المعركة، ولو رأى القاتل سيفاً عند رأس الضحية لما قتله، والقتل أنفى للقتل، ولكم في القصاص حياة، وهي عبارات من ذهب، ولكن الشيطان يكمن في تفاصيلها وهي تفسر الفتح الإسلامي، ولكن تبرر أيضاً

الحروب الصليبية والمغولية والاستعمارية والحروب الأمريكية على الإرهاب التي تشنها اليوم أمريكا في أطراف الدنيا السبعة تحت عنوان حماية الأمن الأمريكي.

كيف يمكن اليوم إطفاء الحرب الأهلية في العراق؟ شروط الموت الأربعة تتوافر لدى كل فريق: الغضب والمظلومية والسلاح والمال، وأمريكا لا تألو جهداً في توفير ذلك كل يوم، ولدى كل فريق من المعاذير ما يدفعه إلى قتل أخيه وهو مرتاح الضمير، بالأدلة ذاتها التي نستنهضها من أجل الهجوم على العدو الصريح، وأصارحك القول: إنني لم أعد أشعر بوجود الحرب العادلة، وحين نقلب النظر في حروب كثيرة وقعت في الأرض وخاضها فرسانها بحماس وتضحية، ولكنهم أدركوا بمرارة أن الهدف كان إرواء نزوات الثأر أكثر من مصالح الأمة العليا.

قبل عشرين عاماً كنا نتسامع ونحن صغار أن (مجرماً) ظهر في جنوب السودان، اسمه غرنغ، يقود مجموعة من الأبالسة والطواغيت لتدمير أمة عربية مسلمة، وكان الوصف الذي يردنا يجعل اسم غرنغ اختصاراً لكل أسماء المجرمين في التاريخ، فهو نيرون، وجنكيز خان، وتيمورلنك، وإبليس اللعين، وهتلر، وشارون، وشامير، ونتنياهو، وكنت في السودان حين كانت عربات السيارات الشاحنة تحمل أبناء الخرطوم بالمئات يصيحون: الله أكبر الله أكبر، وهم يمضون

إلى ساحات الموت في جنوب السودان ليقضوا على هذا الطاغية المجرم، وبعد سلسلة مذابح ومآسي، وبعد أن عاد عشرات الآلاف من أبناء الشمال بالنعوش، والمشهد نفسه أيضاً في الجنوب، وفي لحظة عقل جلس الشمال والجنوب على مائدة التفاوض، وكانت المفاجأة! لقد ظهر أن الجنوب على حقٍّ والشمال على حق، وعلينا أن نخطو خطوة للأعلى وخطوة للأسفل، وينتهي كل شيء، وتمت المصالحة وسمي الرجل نائباً أول لرئيس الدولة رئيس ثورة الإنقاذ السوداني عمر البشير! وهو لقب لا يجوز أن يمنح إلا لمن هو أكثر المواطنين إخلاصاً ووطنية وعقلاً وحكمة، وأنظفهم سجلاً عدلياً! وحين وصل غرنغ إلى العاصمة كانت مئات الآلاف تهلل لمقدمه، وتتحدث عن جهوده المبرورة الخيِّرة في الحفاظ على وحدة السودان وعن تضحياته لإنجاز السودان الموحد!

فإلى من ستتوجه وجوه الأمهات اللاتي عصفت مآسي الموت بأبنائهن؟ ولماذا ظللنا نصرُّ على شرف البندقية والشهادة ونحن نودع زهرات أبنائنا في قتال عابث يقتات بالموت ويعتصم بالبندقية؟

والمأساة الملهاة نفسها رأيناها في اليوم ذاته عندما تحركت ثلاثمئة سيارة من دارفور صوب الناس في أم درمان لتمارس القتل في كل اتجاه حيث لا

يدري السوداني الغارق في همِّ تأمين لقمة العيال ما الذي يحدث في قارة العجائب قارة دارفور، وأجرم أن ليس في كل مئة شخص في الخرطوم شخص واحد زار دارفور، ومع ذلك وصلت مراكب الموت بصيحات المعركة تمارس القتل في كل اتجاه في أمر لم تنته عواقبه بعد.

وهي مآسٍ لا تحتاج للتأكيد فشواهدها كل يوم في الموصل وسامراء وبعقوبة والصدر والنجف وديالي والرمادي.

ذات يوم سيدرك الحمساوي والفتحاوي أنهم ضحايا أوهام، وأن دماءهم التي سالت في الأرض كانت في سبيل الثأر أكثر منها في سبيل الحق، وأن البرامج السياسية للمتقاتلين لم تكن إلا صيغاً لتبادل اتهامات الموت، وأن الشعب الفلسطيني قد تعب من الحديث عن شرف البندقية، وسيتساءل الجيل الآتي: ما الذي استفدناه من شرف البندقية إذا كان الوطن كله قد أصبح مزرعة للموت، وأن البندقية أيَّاً كان مصدرها وموردها فهي محض سلعة لتجار السلاح الفارغي القلوب، أصحاب السحنة الداكنة والأفئدة المظلمة، الذين صنعوا ثرواتهم علقاً يستنزفون به دماء الشعوب.

سيف سعد الذي لم يخلق بعد

في موقف تاريخي فريد وقف سعد بن أبي وقاص متمسكاً بخياره الأعزل في وجه الفتنة المدمرة التي أصابت المسلمين بعد رحيل الرسول، ومع أن سعداً كان يمتلك كل مقومات الوثوب على السلطة؛ ولكنه اختار العزلة والخروج من السباق نحو بيت الخلافة، لقد كان سعد خال رسول الله ﷺ، وما جمع رسول الله أبويه لأحد إلا لسعد، فقال: ارمِ فداك أبي وأمي! وكان في الستة الذين اختارهم عمر للخلافة؛ ولكنه كان أول الخارجين من النزاع نحو الخلافة بإصرار، وحين مات الخمسة الآخرون لم يتبقَ غيره، وكان قادراً أن يشرع السيف للمطالبة بحقه في الخلافة، ولكنه لم يفعل واختار العزلة وأوى إلى داره، وكان ولده عمر بن سعد على رأس كتيبة فدائية عنيفة من سرايا الصراع، وحين جاء إلى أبيه مغضباً أن كيف تختار خيارك الأعزل والناس تموج في الفتن؟

قال له: إن الناس ينتظرونك وإنك أولى الناس بمطلب الخلافة، وإن وراءك أربعين ألف سيف يغضبون لغضبك، فامضِ بنا إلى الشام نطلب حقنا من غاصبيه!

قال سعد بحكمة وبساطة: أريد من أربعين ألف سيفٍ سيفاً واحداً إن ضربت به الظالم قطعه، وإن ضربت به المظلوم لم يقطعه!

لقد كان رجلاً يعاني من مرض الموت؛ ولكنه كان به شوق إلى حياة الأمة ولم يشأ أن يكون طرفاً في أي فتنة من الفتن التي وقعت، وعندما طلب معاوية الخلافة في الشام وبويع عليٌّ في المدينة وانتقل بعد ذلك إلى الكوفة وبدا أن الأمة ماضية إلى التحام طائفيٍ وفتنة مذهبية وفتنة لا ترحم، كان الناس ينظرون بعيونهم وبأعناقهم إلى سعد بن أبي وقاص: ما أنت قائل يا سعد؟ وسعد الذي كان إذا غضب غضب لغضبته أربعون ألف سيف لا يسألونه فيما غضب، وكان الرجل الشجاع الذي رمى بألف سهمٍ يوم أحد والذي كان من رمى بسهمٍ في سبيل الله، مضى إلى سهامه فكسرها ومضى إلى داره ولم يشأ أن يكون شريكاً في فتنة من هذا النوع قطُّ، وحين كتب إليه علي بن أبي طالب يدعوه إلى نصرته، وكان يعلم منزلة عليٍّ في الأولين والمهاجرين ولكنه كان يراها أيام فتنة ولم يشأ أن يستجب لدعوة علي، وأكثر علي إليه الوسطاء ولم يشأ سعد بن أبي وقاص أن يستجيب.

وعلم بالأمر معاوية فكتب إليه: يا سعد بن أبي وقاص، إنك من أنت من أصحاب رسول الله، وقد علمت أنك تركت أمر هذا الدعيٍّ، فتعال إلينا.

فكتب سعد بن أبي وقاص على ظهر الورقة التي وصلته مع الرسول الذي جاءه من معاوية:

معاوية داؤك الدَّاء العياء وليس لما تجيء به دواءُ
أيدعوني أبا حسنٍ عليٍ فلم أقبل عليه ما يشاءُ
وقلت فأعطني سيفاً بصيراً تميز به العداوةُ والبلاءُ
أتطمع في الذي أعيا عليَّاً على ما قد طمعت به العفاءُ
ليوم منه خير منك حياً ومياً أنت للمرء الفداءُ

كتب إليه: أتراودني على ما أعيا عليَّاً؟ أتراودني على ما رددت به عليَّاً بن أبي طالب إنها أيام فتنة، وقد كسرت سهامي وأحرقت كنانتي ولم أشأ في هذه الفتنة المجنونة، أعطني سيفاً بصيراً يميز أولياء الله من أولياء الشيطان، إنها أيام فتنة يا رجل.

سعد بن أبي وقاص أخرج ولده عمر بن سعد وأخرج هاشم بن عتبة وأغلق عليه بابه، إنه قرار بالخروج من هذا العالم المجنون، هذا هو الرجل الذي لا يعرف في تاريخ الإسلام رجلاً أشهر منه جرأةً وشجاعة، أول من رمى سهماً في سبيل الله، أول من رمى بألف سهم يوم أحد، لم يكن موقفه جبناً

ولا تخاذلاً، لم يكن له أصلاً رجاء في الحياة، لقد كان الموت ينهش لحمه كل ساعة، ولكن كان يرجو لأمته الحياة.

كان تساؤلاً بريئاً أراد به سعد أن يقول إن السلاح البصير الشريف لم يخلق بعد، وأن ما افتقده سعد في شبا السيف لم يوجد بعد، وأنه لا شرف لسيف مهما كانت اليد التي تمسك المقبض وقورة وعليمة، ولا شرف لبندقية مهما كانت اليد التي تضغط على الزناد رحيمة وناعمة.

بكل بساطة كان الرجل يبحث عن سلاح بصير، لا يقع إلا في نحور الظالمين الغاشمين.

بعد عكار ودارفور وبعقوبة وديالي وسامراء وغيرها، هل حان الوقت لقول الحقيقة وهي باختصار إنه لا شرفَ لبندقية؟ وأن مصير البنادق في النهاية أن تتوجه إلى صدور أصحابها وأن الموت لا يولد إلا الموت؟

بعد مرور أربعة عشر قرناً يؤسفني أن أقول لك أيها الصحابي الجليل: إن السيف الذي كنت تبحث عنه لم يخلق بعد!

لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك[٤]

كانت الأنظار قبل أربعين يوماً تتجه في العالم كله إلى مكة؛ إذ سيتم بعد صلاة التراويح وثيقة إنهاء القتال بين المتحاربين في العراق وذلك في أقدس مكان وأقدس زمان وأقدس رسالة، في حماية الروح الإنسانية التي نفحها الله، وذلك على أرض مكة المكرمة وفي الحرم الشريف وفي واحدة من ليالي القدر!

لا يوجد في الإسلام أقدس من هذا زماناً ومكاناً وقصداً وغاية، فالكعبة أشرف الأرض، وليلة القدر أشرف الليالي، والرسالة التي نذر القادمون أنفسهم لها أشرف الغايات، وقد استنفذت منظمة المؤتمر الإسلامي كلَّ ما يخطر ببالك في الشكل والمضمون لترتيب قدسيةٍ غامرةٍ وجلالٍ لائقٍ بوثيقة الصلح هذه؛ إذ ستعلق على باب الكعبة، وسيرى المؤمنون الذين احتشدوا بالملايين في الحرم الشريف، وبمئات الملايين على الشاشات الفضائية، مشهد العناق والمصالحة والمسامحة بين أطراف الحرب في العراق، ونقل التلفزيون السعودي أبلغ خطابات الوحدة والجماعة، دبجها فرسان بلاغة لا يشق لهم غبار، وعهد بتلاوة الوثيقة إلى أبلغ خطباء العرب، لتكون واحدة من روائع

[٤] كتب هذا المقال بعد توقيع ميثاق مكة للمصالحة بين العراقيين في تشرين الأول ٢٠٠٦؛ إذ وُقع في ليلة القدر في رمضان، ولكن الفصائل المتحاربة لم تلتزم به أكثر من أيام معدودة.

جمهرة الأدب العربي، وتحدث السني في فضل أهل البيت وتحدث الشيعي في فضل الصحابة، وكرر الخطباء منطق العقل: لنتعاون فيما اتفقنا فيه وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه، واكتمل المشهد لتكتحل به عيون المؤمنين، والتقطت الكاميرات مشاهد العناق بين العمامة البيضاء والعمامة السوداء، وكان الله على أوثق ما في هذا العهد وأبره وأكرمه، ومضى المتفائلون يسمونه عام الوحدة والجماعة، وتذاكروا وفاق قريش وثقيف، ووفاق الأوس والخزرج على يد الرسول الأكرم، بعد أكثر من مئة عام من الحروب!

ولكن هذه الآمال عصفت بها رياح الظنون حين عجزت فضائيات العرب أن تقدم نشرة أخبار واحدة دون قتل جديد على أرض العراق! ومجازر تدفع شهداء يحملون على مراكب النعوش كل يوم، ورؤوس مقطوعة، وجثث مشوهة، ومخطوفين لا يعرف الجن الأزرق عنهم خبراً، وبعد شهر من العناء والدماء، وروائح الموت الرهيبة، والذبح الطائفي المجنون، والقصف بالهاون والأربي جيه والصواريخ العمياء التي لا تصيب إلا الأبرياء، أعلن الناطق الرسمي باسم الحكومة العراقية أن هذا الشهر كان أكثر الشهور دموية في العراق؛ إذ قتل ما يزيد على ٣٢٧٠ عراقياً! وهو رقم يقتصر على أسماء الضحايا الذين سقطوا أمام عدسات الكاميرات فقط، وتمكن المراسلون النشطاء من متابعتهم، ولكن العدد الأكبر من الضحايا لم ترصده كاميرا الجزيرة ولا العربية ولا ما

يحزنون، فالموت الذي يقع في القرى والبراري ويوارى في مقابر الموت لا تطاله كاميرات الفضائيات مهما كان مراسلوها شجعاناً وباسلين، وعليهم أن يكتفوا بما يرشح من معلومات عن الفنادق المحصنة التي يقيمون بها خوفاً من مصير كمصير الشهيدة أطوار بهجت، فالعمر ليس (بعزءة) وهم ليسوا مجانين، وهكذا فإن الرقم سيتضاعف بكل تأكيد مرات كثيرة، ولست أدري بأي حنجرة سيصرخ العالم عندما يدرك هول الكارثة كما هي في الصورة التي لا يعقلها إلا العالمون؟

أيُّ هولٍ هذا الذي يقف بك أمام الكارثة، وكأنما كان غرض اللقاء الروحي الدافئ في مكة إذكاءَ مزيد من الحماس على طاحونة القتل المستعرة التي لم تتوقف قطُّ!

فهل كانت العرب أيام داحس والغبراء وحرب البسوس أعرف بحرمة البيت وحرمة دم الإنسان من عرب اليوم؟ وهل نحتاج في وعينا بحرمة البيت إلى دروس من عرب الجاهلية الذين كانوا يعدون الرزق بالسيف أشرف المكاسب، ومع ذلك فقد كانوا ينصتون لهيبة الشهر الحرام والبلد الحرام، حتى كان العربي يرى قاتل أبيه في الشهر الحرام فلا يمسه بسوء حرمةً للشهر العظيم؟ وهل كان أبو زيد الهلالي وعنترة بن شداد أحرص على الدم العربي من حارث الضاري

ومن مقتدى الصدر؟ ولماذا غاب الرجلان عن مكة؟ وهل سيكتب لنا في نهاية الأمر أن نأخذ أوسكار النفاق العالمي جزاء وفاقاً لقبلاتنا الحارة الدافئة التي سرعان ما تتحول إلى حكاية غدر ومآثم!

أسئلة كثيرة لا جواب عليها، ربما كان من المنطقي القول إن الذين حضروا إلى وثيقة مكة ليسوا هم أولئك الذين يفخَّخون أو يفجِّخون، وإن آمر النار في هذه الحرب المجنونة ليس له علاقة بخطاب الرشد والحكمة، وهو غير راغب بحضور مهرجانات كهذه، فهو كل يوم في شأن، ولديه شغل كثير في معامل الصاج يفخخ مزيداً من السيارات ويعدها للموت المحتوم، ولا يحب أن يترك عمل اليوم للغد! ومهما كانت وجوه المؤتمرين صبوحة وكريمة ولكنها لا تطعم خبزاً ولا تنجز ثروة تقنع تاجر الموت!

قد تكون هناك أجوبة كثيرة، ولا ريب في أن كل ما يجري هو نتيجة الاحتلال ولكن الاحتلال لم يكن له أن يمضي بمشروع الموت هذا لو لم نوفر له الأدوات الساذجة البلهاء التي ترتكب الموت في الأبرياء وتحتسبه عند الله جهاداً، ولا يوجد رسالة أشرف في الضمير الإنساني أقدس من نشر الوعي بالحجة والبرهان للتفريق بين الجهاد في سبيل الرحمن وبين الفتنة في سبيل الشيطان، وأن الوعي وحده يمكنه أن يجنب البلد جنون الحرب الأهلية، ويفرق

بين رسالة الجهاد ووبال الفتنة، ويشرح لك متى يكون سل السيف جهاداً ومتى يكون غمده جهاداً، فالشريعة التي كلفتنا بمشقة النفس سلَّ السيف لقتال البغاة والمعتدين، وكتب عليكم القتال وهو كره لكم، هي نفسها الشريعة التي كلفتك أن تكسر السيف يوم الفتنة، لئلا تكون وقوداً جديداً لنار الكراهية في الأرض.

إنها حقيقة من البداهة بمكان، ولكنني أعتقد أن ترك القتال في الفتن قد يكون أقسى من اقتحام المعركة يوم الجهاد، وهي حقائق أترك شرحها هنا للنبي الأكرم ﷺ: «إنها ستكون فتنة، يكون المضطجع فيها خيرا من الجالس، والجالس خيرا من القائم، والقائم خيرا من الماشي، والماشي خيرا من الساعي، قال: يا رسول الله ما تأمرني، قال: من كانت له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال: فمن لم يكن له شيء من ذلك؟ قال: فليعمد إلى سيفه فليضرب بحده على حرة، ثم لينجو ما استطاع النجاء».

وفي رواية أخرى قال: إنَّ بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، القاعد فيها خيرٌ من القائم، والماشي فيها خير من الساعي، فكسروا قسيكم وقطعوا

أوتاركم واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دخل على أحد منكم فليكن كخير ابني آدم، ثم تلا قول الله سبحانه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾.

من المؤكد أن هذا اللون من الخطاب لن يمرّ دون نقد، وسيبدو لبعض الناس تماهياً في الاستخذاء وربما فراراً من الزحف، وسيتم تفسيره على أنه سذاجة سياسية، وربما مؤامرة لتمرير مشاريع التقسيم والتفتيت، وطرح الوهن في عزيمة أتباع المذهب أو الطائفة، ولكن قراءة في العمق لخطاب النبي الأكرم ﷺ تجعلك تدرك أنه لون من أشرف الجهاد الذي جاء به الكتاب وأكدته السنة المطهرة، ولا أشك أبداً أن حمَّام الدم العراقي الذي انفجر في العراق لن يندمل بصيحات مثل: هيهات منا الذلة، ويا لثارات الحسين! ولا بشعارات من مثل: تقحَّم لعنت أزيز الرصاص وجرب من الموت ما يقسم! وسيمضي القتل يجر القتل حتى تنثلم السيوف وتفرغ المخازن، وهو ما لن يسمح به المحتل أبداً، فالقوم أسخياء باذلون، وخزائنهم مملوءة بصناعة الموت، وسينفقون من موازناتهم لتبقى شعلة الموت موقودة، وسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة، ولن يحسم أمر الدم في العراق إلا حين نملك الجرأة والإرادة لتطبيق مذهب ابن آدم الأول، قال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله، أرأيت إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده ليقتلني؟ قال: فقال رسول الله :ﷺ «كن كخير ابني آدم»، وتلا

يزيد: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [المَائِدَة : ٢٨].

يا سامعين الصوت، إن الإمعان في قاعدة: العين بالعين سيجعل الجميع عمياناً!

البشير وغارانغ[٥]

قراءة في بؤس الحرب العادلة

لا أعتقد أن أحداً ممن تابع أخبار اتفاق السودانيين والمصالحة التامة بين الجنوب والشمال التي تكرست رسمياً بدخول غارانغ إلى الدولة السودانية بوصفه نائباً للرئيس، ولا أعتقد أن أحداً حضر ذلك المشهد الاحتفالي المهيب إلا وقد غمره الفرح والبهجة لانفراج أزمة أرّقت السودانيين لأكثر من نصف قرن، ودفعوا ثمنها من أعصابهم ولحمهم ودمهم، وقدَّموا من أجلها آلاف الشهداء.

ولكنني كنت في الواقع أعاني من مشاعر أخرى!

قبل سنوات كتبت مقالاً في تشرين عن الحرب الظالمة وحقِّ الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة، وكنت في مقالي أؤصل لثقافة مهمة تشرح حقَّ الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة إذا دعي إليها، وهو حقٌّ لاتزال دول العالم اليوم تتنكر له وترفضه؛ إذ يرغم الإنسان على خوض الحروب وفق إرادات حكوماته المتعاقبة من دون أن يكون له حقُّ تقرير الحرب والسلام

[٥] كتب هذا المقال بعد إنجاز المصالحة السودانية بين الرئيس عمر البشير والجنرال جون غرنغ في آب ٢٠٠٥

الذي تحتكره عادة المؤسسات العسكرية ويدفع الإنسان ثمن اختياراتهم من دمه.

وبصفتي ضابطاً موضوعيًّاً لاختياري كنت أتحدث عن رفض الحرب الظالمة مقرِراً أن الجندي وحده هو من يقرر ما إذا كانت الحرب عادلة أو ظالمة وليس الإدارة السياسية أو العسكرية، حينها كتب عدد من الباحثين مقالات في الردِّ على مقالي هذا، وقد أعجبني منها ردٌّ للكاتب الدكتور يوسف سلامة من السعودية يشيد فيها بمقالي؛ ولكنَّه يتساءل أين هي الحرب العادلة؟

كان ذلك التساؤل يعكس في خاطري مشهداً مؤلماً من الذكريات، فالحرب شرٌّ كلها لا يمكن ببندقيات الحرب الظالمة إنتاج أي ثقافة متحضرة أو متوازنة.

ثمة حروب كثيرة خاضها الناس بأعلى درج الحماس وقدَّموا أرواحهم بسخاء فيها كما لو كانت معراجاً لهم إلى نعيم الجنة، ثم بدا للحكماء بعد ذلك أن الحرب لم تكن مبررة، وأن الغايات التي ابتغيناها من الحرب لم تكن على وفق إرادة المحاربين الكاسرة وكان بالإمكان أن نعالج همومنا وقضايانا بثمن أهون من هذا لا تضيع فيه الأرواح ولا تزهق فيه المهج.

لقد زرت السودان يوم كان ساحة حرب تغلي، وكان خيرة شباب السودان يندفعون إلى شاحنات هائجة تغلي بصيحات الجهاد ورغائب الجنة، ويتواثب فيها الأبناء البررة إلى مقاعد القتال وهم يرددون: في سبيل الله قمنا نبتغي رفع اللواء، إلى آخر أناشيد الجهاد الحماسية التي لا تنتهي، وكان الجنوب بدوره يحشد الآلاف من أبنائه تحت لواء القتال من أجل الحرية وربما بشعارات دينية لا تقل هياجاً عن شعارات الشمال ورایاته!

يومذاك كان الجنوب السوداني يشكِّل بوابة الجنة للراغبين في أسرع طريق إلى الفردوس، وكان اسم غارانغ في ذهن كل سوداني وعربي يعني رمز الشر والكيد، والكفر، والغدر والمكر، بحيث كنت تختصر اسم إبليس، وهامان وقارون، وأبي جهل، ونيرون وشمر بن ذي الجوشن، وتيمورلنك وجنكيز خان وهولاكو، وهتلر وشارون، وموفاز ونتنياهو بكلمة واحدة إنها غارانغ!

هكذا على الأقل ظلَّ المشهد لأكثر من اثنين وعشرين عاماً، لم تتوقف فيها رحى الحرب الطاحنة بين الشمال والجنوب.

فجأة ينصت السودان إلى صوت العقل، ويصغي الشمال إلى مطالب الجنوب، ويصغي الجنوب إلى مطالب الشمال، ويستفيق الكل على حقيقة صادمة: إننا لم نكن نتجه إلى أي مكان!

أيُّ بـــؤسٍ قاتـــلٍ تصـــحو لـــه بعـدما يفـنى علـى السـير الزمـان
حينمـــا تعلـــم يومـــاً أنـــه لم نكـــن نمشـــي إلى أي مكـــان

كثيرون من شباب الكفاح الهائج الذين قدَّموا أرواحهم وقوداً للحرب المجنونة صاروا يصرخون بلا أسرار:

فـــإذن روحـــي الَّـــتي أحرقتُهـــا وشبـــــابي وعـــــذابي ودمـــــي
وكفـــــاحي وجراحـــــي إثرهـــــا كـــان طيفـــاً مـــن خيـــال واهـــمِ؟

فجأة يقف غارانغ إلى جوار عمر حسن أحمد البشير يقسمان اليمين الدستورية على أن يكون الأول رئيساً للسودان والآخر نائباً له في أكبر موقعين في الوطن لا يرقى إليهما في العادة إلا من كان أنظف الناس سجلاً وطنياً، وأكثرهم حرصاً على وحدة الأوطان وأكثرهم غيرة على أهل السودان.

كنت أشعر حينذاك بشعور آلاف الأمهات اللاتي خسرن أبناءهن وفلذات أكبادهن وهنَّ يقاومن مدَّ غارانغ هذا الذي كنَّ ينظرن إليه دون شك على أنه مشروع عولمي شيطاني متوحش مهمته ابتلاع الإسلام والعروبة والقضاء على الحقِّ والبر والنور والخير.

تذكرت الأبناء الذين ودعوا آباءهم وهم يركبون الشاحنات، يخرجون على أقدامهم مهللين ويعودون في النعوش يهلل لهم، أو لا يعودون ليجعلوا من جسومهم جسراً يحول دون مشروع غارانغ المتوحش الهادف إلى القضاء على الإسلام والعروبة والسودان.

لم يكن لدى الأبناء والأمهات أيُّ شكوك في كون جهادهم هذا ضرورةً وطنيةً وحقيقةً دينية، ونضالاً إنسانياً، وأن معاني النبل والطهارة والإخلاص كلها تتجسد في التضحية لوقف قوة غارانغ وتمدده.

بالتأكيد كان الشعور نفسه يخامر الجنوبيين، وحين دفعوا أيضاً آلاف الضحايا كانوا يحسون أنهم يدافعون عن السودان وعن الفضيلة والقيم العليا في وجه المدِّ الأصولي المتطرف القادم من الشمال، وهناك آلاف مؤلفة من مسلمي الجنوب كانت تخوض الحرب بالهدف ذاته الذي خاضه عرب الشمال، وكانوا يرون جهادهم هذا في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وليتم القضاء على عمر حسن أحمد البشير والترابي وغيرهم من الذين شوهوا الإسلام وقسموا السودان!

فأين تكمن الحقيقة في ذلك كله؟ وأين هي الحرب العادلة التي يتطلع إليها الفريقان؟

هل سيمتلك النظام الجديد الجرأة ويقول لقد كنا في ضلال مبين؟

على الأغلب لا؛ بل سيقولون إن التضحيات العظيمة والدماء الزكية الطاهرة هي التي أوصلتنا إلى هذا النصر العظيم!

وربما كانت هذه المجاملة الكاذبة أفضل الطرائق للهرب من وجوه أمهات الشهداء وأبنائهم وإخوانهم، الذين صدقوا ذات يوم أن الدم وحده هو من يصنع الأمن، وأن الحرب هي التي تصنع السلام.

منذ قرأت كلمات يوسف سلامة وأنا أبحث في هذا العالم المعاصر عن الحرب العادلة، وحتى هذه الساعة فإن الحرب العادلة لا تعدو كونها مكراً من الأقوياء، وبالإمكان القول: إن كل شرور الحرب كان يمكن اجتنابها لو بحث الطرفان عن مصالحهما بعيدة عن نزعات الاستعلاء والظلم والقهر، وهو ما تمكن العالم المتحضر اليوم من إنجازه، فهو عالم يتحكم بمصائر الأرض وثرواتها؛ ولكنه يحل مشاكله بالحوار والتفاوض، ولا تبدو الحروب اليوم بين الدول المتقدمة خياراً وارداً لحل مشاكلها على الإطلاق وقد تمكن دهاقنة الشر من نقل غريزة الحرب إلى الدول المتخلفة فيما هم يرتعون في نعيم الديمقراطيات!

لقد تمكنت أوروبا من تجاوز تاريخ معمَّد بالدم فيه مئات الحروب الطاحنة، وثقافة من الكراهية تمتد إلى قرون متطاولة وعلى أنقاض الأوهام أقام الغرب آمال وحدته، وجمع أحلام هذه الشعوب جميعاً على هيئة نجوم صغيرة تلتف حول دائرة متساوية في علم أزرق يؤمن بالكل ويسعى إلى حل المشاكل بالطرائق السلمية.

إن اللغز كما عبر عنه جودت سعيد يختصر بكلمة واحدة: (حين قال هتلر: (ألمانيا فوق الجميع) أشعل الحرب العالمية التي أكلت الأخضر واليابس، وحين غيَّر الألمان ظرف المكان وقالوا: (ألمانيا مثل الجميع) تمكنوا من بناء الوحدة الأوروبية الشامخة التي يباهي بها العالم اليوم).

هل هناك حقاً حرب عادلة؟ خاصة في عصر السلاح الأعمى الذي لا يفرق بين الظالم والمظلوم ولا بين الجلاد والضحية؟

ومازلت يوماً بعد يوم أشك في أن هناك حرباً عادلة، وأقترب أكثر فأكثر إلى جودت سعيد الصوت الصارخ في البرية بأن لا وجود لحرب عادلة خاصة في عصر الأسلحة العمياء التي لا تبقي ولا تذر، وأن تطبيق قاعدة العين بالعين سيجعل الجميع عمياناً!

وجهاً لوجه: أحمد جبريل وجودت سعيد

نار الثأر وروح الغفران[٦]

من وجهة نظري فإن الجامع سِمّي جامعاً؛ لأنه أولى محافل الأرض بجمع الناس على اختلاف مشاربها وطبائعها وثقافاتها وأديانها، وخطب الجمعة هي في الواقع مؤتمرات مجانية تنعقد كل يوم جمعة تحتشد فيها طاقات المجتمع بأسره ويتاح للناس أن تلتمس بوارق الحقائق من تصادم الأفكار.

كانت المفاجأة في جامع الزهراء يوم الجمعة الماضي، فحين فرغنا من صلاة الجمعة كان يمين المحراب هذه المرة من نصيب أستاذين كبيرين هما الشيخ جودت سعيد والمناضل أحمد جبريل، رجل الحب ورجل الحرب، فينوس ومارس!

ومباشرة حملت إليَّ عيون الناس سؤالاً واحداً: كيف يمكن أن نجمع بين خيار الشيخ جودت سعيد وخيار أحمد جبريل وكل منهما كما هو واضح على طرفي نقيض، فجودت سعيد رجل اللاعنف في المنطقة، ويحب أصدقاؤه أن ينادوه بغاندي العرب، وصورته المحببة إليه هي عناقه مع الدالاي لاما حمامة

[٦] نشرت في جريدة الثورة ٢٠٠٦/١٢/١٥.

السلام في الهمالايا، ومع أنه يقيم على الشريط الشائك في بير عجم في الجولان فهو يصلي دائماً من أجل السلام، يؤمن بالحبِّ ويكفر بالحرب، فيما يتذكر الناس أحمد جبريل ثائراً منتفضاً على خيار التسوية والمصالحة بكل أطيافها، وقد عصفت انتفاضته الغاضبة بالأيقونات جميعاً ومزقت كل وثائق كامب ديفيد، ومشروع فاس وأوسلو، وجنيف وشيفاردز تاون، وشرم الشيخ، وخرائط السلطة وتفاهمات تنت وخطة الطريق ومبادرة بيروت، ورفعت شعار البندقية، وأطلقت الطيران الشراعي الاستشهادي في قلب كتائب العدو.

ومباشرة حملت السؤال إليهما بصورة صادمة: فينوس ومارس، أهلاً بكما، لقد جمعكما المحراب، رمز العنف ورمز اللاعنف، كيف ستتصرفان؟

كان كثير من المصلين الذين يعدون بالآلاف يعتقدون أن المشهد ماضٍ إلى طوشة أكيدة في الاتجاه المعاكس، وأنهما لن يحتاجا فيصل القاسم ليلهب الخصام، وأن الرجلين على دربين متفارقين لا يمكن الجمع بينهما إلا عندما تلعن عقلك! فهيهات أن يجتمع خطاب المرحمة بخطاب الملحمة، ولكن كيف كانت النتيجة؟

جودت وقف بفرح وحبور وقال بابتسامته المشهورة: أهلاً بالمجاهد أحمد جبريل، نحن في درب واحدة، دعني أذكرك بكلمة الشيخ أحمد ياسين

حين تم تسليمه من تل أبيب إلى عمان وكان مقيداً إلى نقالة محمولة، وحين سأله صحفي متوثب: كيف ستتصرفون حيال المقاومة؟ وبلغة سهلة بسيطة قال: المقاومة باقية ما بقي الاحتلال، وحين سأله الصحفي عن موقفه من الخلاف مع فتح وكيف ستواجهون أربعة عشر فرعاً أمنياً أسستها السلطة الفلسطينية من أجل مواجهة حماس، قال ببساطة: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾.

واضح إذن أن موقف التنوير الإسلامي الذي يقوده جودت سعيد ليس موقفاً أبله كما يتوهمون، وهو لا يفكر بإدارة خده الأيسر لمن لطمه على الأيمن، ولن يعطي إزاره لمن سرق منه رداءه؛ بل هو حريص ألَّا يَلطِم ولا يُلطَم، ولا يَظلِم ولا يُظلَم، وهو يفرق بوضوح بين الجهاد وبين الفتنة، وهو ما منحه وضوحاً في الرؤية ومضاء في العزيمة.

جبريل بدوره لم يكن في جوابه يناطح الصخر أو يتحدث عن الوهم، لقد تحدث بعفويته وبساطته الودودة موجهاً كلامه خصوصاً للتلفزيون الدانمركي الذي كان حاضراً يسجل المشهد إياه: ليس لدينا لعنة تاريخية نتوارثها مع اليهود، لدينا هدف واحد عادل وهو العودة إلى فلسطين، إن أمريكا تفهمت مبرر عودة اليهودي التائه الذي يزعم أن آباءه قبل ثلاثة آلاف عام مروا من هنا! ولكنها لم تتمكن حتى الآن من فهم حقِّ الفلسطيني الذي ولد

هو وأبوه وجده على تراب فلسطين، الذي مازال يملك أوراق الطابو ومفتاح الدار، والغربال والكوفية، والماعون والشيشة التي رافقته في رحلة العناء والهرب من مطحنة الموت التي كان يبثها الاحتلال في كل وجه.

سأل الدانمركي بذهول: أحمد جبريل! ألا تريد أن تلقي باليهود في البحر؟ قال أحمد جبريل بعفوية وصدق: كل ما أريده هو العودة إلى أرضي ووطني، وبإمكان كل أهل فلسطين العيش فيها بأمان، هل ترى في هذا أدنى مبالغة أو مكابرة بالمحسوس؟ إنها محض رجاء! لا يختلف عن رجاء كل طائر أن يؤوب إلى عشه، وكل مسافر أن يحط عصاه ويستقر به الرحى.

كم هو رائع أن تصغي إلى صوت العقل! وعند ذاك لن يكون الاختلاف إلا توسعة على الأمة وربما تكاملاً في إدراك الأدوار من أجل هدف واحد هو تحرير الأرض والإنسان نتناوب فيه الأثر والتأثير.

إن إسرائيل تتصرف مع العرب في براغماتية متناوبة بتناسق أدوار رهيب يخدم في النهاية مصلحة إسرائيلية واحدة، إنهم يحاورونا بيريز، ويهددونا بليبرمان، ويلعنوننا بشاس، ويحقدون علينا بكاخ، ويبتسمون لنا بميرتس، ويقصفوننا بأولمرت، ويخاتلوننا بمجلي وهبة، ولكنهم في النهاية جميعاً إسرائيليون، فهل تعلمنا منهم؟

هنا أتساءل بجد أيُّنا أولى بقول الله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحَشْر: ١٤].

كان بالإمكان أن نستفيد تماماً من اختلافنا وأن ندرك أنه سيساعدنا كثيراً في تحقيق ما نريد، فاختلاف أمتي رحمة، وأعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس، وهو معنى نظمه زهير ظاظا:

ربَّ قـــومٍ في اخـــتلاف حـول ذي حسـن يـدقُّ
يتجلـــى في اخـــتلاف وهـــو في الجـوهر حـــقُّ

حين أكتب هذه الكلمات فإن مصارع الفلسطينيين هذا الأسبوع كانت في غاية المرارة، فالقتل هذه المرة ليس بيد العدو التاريخي؛ ولكنه بيد رفاق الدرب وإخوة السلاح، ولا يوجد في تاريخ الغدر أبشع من قتل أطفال أبرياء مع سائقهم عن عمد وتصميم، أعرف أطفالاً قتلوا في الحروب في تفجيرات كثيرة؛ ولكنني لا أعرف في تاريخ الغدر في العالم أن أطفالاً أشقاء ثلاثة قتلوا بتصويب مباشر على رؤوسهم في طريقهم إلى المدرسة وهم يحلمون بروح العصافير وبراءة الطفولة، ولكن ما هو أسوأ من الجريمة أن ينتظر فاعلوها الأجر والثناء على أساس أنها نضال ثوري! ألا لعنة الله على الظالمين.

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائِدَة : ٣٢].

فهل يصغي المتقاتلون إلى صوت العقل ويدركون أننا نطبخ كفاحاً ثورياً فارغاً حين نطمس إرادة الحوار، ونصرُّ على ممارسة التكفير في الدين والتخوين في السياسة، وأننا إذ ذاك لا نلتفت على الإطلاق إلى ما بيننا من تشارك في الواقع والمصير، وهو ما سيعود بأفدح الأضرار على الكفاح الفلسطيني.

رسالة مكة... الكفاح الفلسطيني أمام الله والتاريخ[٧]
قراءةٌ في فقه عام الجماعة

أما اصطلاح (عام الجماعة) فهي التسمية التي اختارها المسلمون للصلح الذي وقع بين علي ومعاوية في يوم السادس والعشرين من ربيع الآخر عام واحد وأربعين للهجرة، وربما كانت ثقافة ذلك الصلح هي أولى ما نقدمه للمجتمعين اليوم في رحاب البيت الحرام من قادة الكفاح الفلسطيني الذين يبحثون عن أفق يتلاقون فيه بعد حمَّامَّات الدم التي عصفت بأرض الرباط في بيت المقدس، وأحالت وحدة الدم الفلسطيني إلى حكاية تائهة يلهو بها الإسرائيلي في زحمة الفضائح الأخلاقية التي يعاني منها الكيان الصهيوني التعيس.

إنها ساعة فاصلة يتنادى فيها الفلسطينيون إلى ساحة الحوار على إرث من الدم والغضب، وصيحات الثأر، التي تكللها آهات النساء الثكالى، في أرض المحشر والمنشر، على أساس الوهم الجاهلي أن روح المقتول تظلُّ في ظلام حبيسة عطشى حتى ترتوي بالثأر من دم القاتل أو عشرة من أهله!

[٧] كتبت هذه المقالة في شباط ٢٠٠٧ فيما كان الفلسطينيون يجتمعون في مكة برعاية الملك عبد الله للمصالحة حيث وقع الفريقان اتفاق مكة الذي أوقف العنف إلى أجل محدود.

اليوم سيُدعى الكفاح الفلسطيني إلى اختبار جديد، فلغة الديمقراطية البائسة التي يتاجر بها العالم المستبد، جاءت هذه المرة على عكس الهوى الأمريكي، وهكذا فإنها وجدت الطرق كلها مقطوعة، ولم يكن بمقدور أولئك الذين ختموا على الوثائق الديمقراطية أن يغيروا شيئاً من الواقع أو يحولوه، لقد وجدت الديمقراطية نفسها حبيسة القفص، ووجدت من حولها العالم المتفرج لا يمدُّ لها يد العون وإنما يتفرج على معاناتها في القفص بابتسامات صفراء، فماذا سيقول الفلسطيني في عصر الحيرة والوهم هذا؟

أما نحن فلسنا في قاعات مكة الملكية، ولا نحن في خنادق غزة أو الضفة، نحن هنا نتابعكم ونراقبكم وندعو لكم، ولا نملك أكثر من كلمة الخير والنصيحة، على وفق قول النبي الأكرم ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

هل ستقدم مكة بروحانيتها الغالبة ما يكفي من جرعة الروح ليخرج الفلسطينيون من شرك المناصب والمكاسب، التي تجلل عادة بالمصلحة العامة ومصالح الشعب، ولزوم الكفاح، إلى موقع المصالحة الذي لن يأتي إلا على أساس التخلي عن كثير من المناصب والمكاسب!

ربما كان أقرب الأمثلة من التاريخ لهذا المشهد الصارم هو أمير المؤمنين علي ﷺ، إنه لم يكن لديه أدنى شكٍّ في أهليته للخلافة وأنه أولى بها من كل أحد بعد رسول الله، وكان لديه ألف دليل ودليل على وجوب تسلم الخلافة لمصلحة الأمة والشعب، واستجابة للمسؤولية والأمانة، وأنه لن يفر من الزحف ولن يفرط بتراث محمد، وكان هذا رأي كثير من خيار الصحابة فيهم: سلمان، وعمار، وبلال، وأسامة بن زيد، والعباس بن عبد المطلب، وكانت زوجته فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ عليها رضوان الله أكبر نصير له في ذلك، وقد وقفت في نصرته وقفة صارمة، ولكن علياً ﷺ كان له رأي آخر، فقد جمع ثوبه ومضى إلى أبي بكر الصديق فبايعه بالخلافة، وسط ذهول أصحابه، وكان بين يديه عشرات النصوص النبوية الصادقة التي تتحدث عن ولايته للمؤمنين ووصايته فيهم، وكان بعضهم يرويها له نصاً على الخلافة الكاملة، ولكنه ركن تلك النصوص كلها في رفوف الدار، ورأى أن حقن دم المسلمين أولى، ودفع الخلافة لغيره واكتفى بأن يكون وزيراً حازماً لأبي بكر، وظهيراً أميناً لعمر، وناصحاً شفيقاً لعثمان، ولم يشأ أن ينازع على الخلافة حتى صارت إليه بعد أن مضى القوم الذين نافسوه فيها وهو عندهم حبيب وإليهم قريب، وقطع بذلك كل جدل كان يسعى له أعداء هذه الرسالة.

أما الإمام الجليل الحسن علي ﷺ، فقد ضرب مثلاً آخر في الترفع عن الجاه والمنصب، وحين مات أبوه علي ﷺ شهيداً على يد الخارجي عبد الرحمن

بن ملجم، وتمت شماتة الحزب الأموي بما لقيه أمير المؤمنين، واشتد غضب أصحابه وصراخهم من أجل الثأر لدمه، وأقبل عليه الناس يمنحونه البيعة بعد أبيه، حتى بايعه من الناس اثنان وأربعون ألفاً كفلاء على من وراءهم من الأمة، يبايعونه الدم الدم والهدم الهدم، حتى إذا مضت على بيعته شهور، ونظر حال العالم الإسلامي حينئذ، ورأى ما يتقلب الناس فيه من الفرقة والضياع، آثر جانب الله على هوى أصحابه، وجعل يتصل بخصومه يدعوهم إلى مشروع رشد وجماعة، وواعد الناس بمسجد الكوفة آخر ربيع الآخر، واجتمعت في مسجد الكوفة الألوف المؤلفة غاضبة ثائرة، مشرعة السيوف، على جباههم عصائب الدم، وقد أدهنت بالقطران، حتى إذا صارت جماجم العرب بين يديه يحاربون من حارب ويسالمون من سالم، فوجئ الناس حينئذٍ بإمامهم وزعيمهم عميد أهل البيت يدخل المسجد يداً بيد مع خصمه معاوية، ومشى حتى قام على المنبر، وألقى كلمته الخالدة التي ينبغي أن تكون دستور الوحدة الإسلامية الباقية، وها أنا أجمع أطرافها من روايات ابن عساكر والطبري.

قال: (يا أيها الناس، إنما نحن أمراؤكم ضيفانكم، ونحن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) فكررها حتى ما بقي أحد في المسجد إلا وهو يخنُّ بكاءً.

ثم قال: (أيها الناس، إن الله هداكم بأولنا، ويحقن دماءكم بآخرنا، وإنكم قد بايعتموني أن تسالموا من سالمت، وتحاربوا من حاربت، وإن أكيس الكيس

التقى، وأعجز العجز الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه مع معاوية لا يخلو أن يكون حقاً له فأنا أدفعه إليه، أو حقاً لي فأنا أنزل عنه إرادة صلاح المسلمين وحقن دمائهم!).

ثم قال: (إن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين، ثم استغفر الله ونزل).

وحين كانت الملائكة تحفُّ بالبشرى ذلك اللقاء الوحدوي الخالد وتحقق معجزة البشارة النبوية بدور الحسن في الإصلاح، جاء شقيٌّ من الأشقياء وهمس في أذن الحسن: يا مذل المسلمين! فالتفت إليه عميد أهل البيت، وقال له كلمته الخالدة: (العار ولا النار!).

وكان يقول بعد ذلك: (قد كانت جماجم العرب في يدي، يحاربون مَن حاربت، ويسالمون مَن سالمت، ولكني خشيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفاً تنضح أوداجهم دماً، كلهم يستعدي الله علي، فيمَ أهريق دمه؟)

وفي رواية قال: والله لا يسرني أن تكون لي خلافة محمد وأن يراق من المسلمين محجمة دم!

إنها دروس التاريخ، لقد تخلَّى الحسن بن علي عن شهور كثيرة، وربما سنين كان يمكنه أن يمضيها في باحات القصور الأموية الجميلة، بشرط أن يدفع بضع مئات من أصحابه ومن أخصامه ثمناً لمعركة ضرورية للنصر؛ ولكنه في الواقع آثر أن يحقن دم الناس، وأن يرضى من الغنيمة بالإياب، ومع أن القعود عن مطلب كبير كهذا سيكون في كل يوم مدعاة للندامة والحزن، ولكنه أراد من موقفه البطولي هذا أن يترك للتاريخ رسالة واضحة أن العاقبة للمتقين وأن الله مع الباذلين، وأن يحظى بشرف قول النبي الكريم ﷺ: ولدي هذا سيد ولعل الله يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين.

نحن لا نشك بصفتنا مسلمين أن الحسن عليه رضوان الله كان أفضل عند الله من طلاع الأرض من مثل معاوية! ولكن عظمة الرجل هي التي حملته على الترفع عن الخلافة على ما فيها من ذكر وذخر وأجر إرادة صلاح الأمة وجمع كلمتها، وهو ما تحقق بالفعل حين سمَّى المسلمون عام ٤١ هجرية عام الجماعة.

عاشوراء على وزن غير قياسي في العربية (فاعولاء)، وهي أيضاً حدث غير عادي، مازال يلهم الأمة معاني البطولة والفداء، ويؤجج نار الثورة في المستضعفين في الأرض، إنه يوم العاشر من محرم، اليوم الذي اختار فيه الإمام

الحسين أن يسجل أروع سطور البذل والتضحية من أجل أن يعلن للناس أن المؤمن لا ينام على ضيم.

درج المسلمون على إحياء ذكرى استشهاد الحسين يوم عاشوراء، وهو يوم الشهادة والفداء، وإحياؤه يبعث في الناس مشاعر الجهاد، وبالفعل أي شيء يلهب المجاهدين الأبطال في جنوب لبنان وهم يدافعون عن كرامة الأمة ويعلون راياتها أكثر من ذكرى الحسين؟ العصائب الحمراء على جباههم بوارق شهادة في أمانيهم، وسياط عدل لاهبة في ظهر أعدائهم، كل ذلك يتم بذكرى أبي عبد الله الحسين!

ذات يوم كنت مع الصديق العزيز الزعيم السوداني عبد الرحمن سوار الذهب في رحلة من طهران إلى أصفهان، ركبنا سيارة واحدة وقلت له في الطريق: يا فخامة المشير، لا أعرف في تاريخ العرب رجلاً تنازل عن السلطة بمحض إرادته من أجل مصلحة الأمة إلا أنت! فما دفعك إلى هذا؟

نظر إلي نظرة ذات مغزى، وتأمل قليلاً، ثم لم يزد أن قال: جناح بعوضة!

وصلت الرسالة كاملة يا فخامة المشير، فهل تصل إلى العاكفين عند البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً؟! إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

سيذكرك التاريخ أيها المشير الحكيم، وستبقى في ضمير العالم رمزاً للرجل الذي تسامى على حطام الدنيا، وآثر وحدة الأمة على هوى فؤاده.

وقد عرف المسلمون فضل ذلك اليوم، وسموا ذلك العام كله عام الجماعة، وعرفوا فضل الإمام الحسن، الذي نشهد الله أنه أقدم على ما أقدم عليه من غير جبن ولا خور، ولا شك، ولا وهن، وقد علمت الأمة كافة أن الحسن خير عند الله من طلاع الأرض من أخصامه، ولكنها رسالة الوحدة التي ألقاها الله على عاتق قيادات هذه الأمة.

فهل ندرك هنا الوعي المطلوب بالدرس التاريخي وكيف يمكن أن تتحل دروس التاريخ إلى بوارق رحمة ووحدة كما يمكن أن تتحول إلى سياط فرقة وشقاق؟ وهل أدرك القارئ الكريم المبررات الكافية للدعوة التي أطلقتها قبل سبع سنين في مكتبة الأسد الوطنية في مؤتمر أهل البيت يوم دعوت الأمة إلى إحياء ذكرى الحسن العظيم؟ وهل ندرك أن الحسن أخو الحسين؟ وأن لكل منهما رسالة باقية في الضمير التاريخي للأجيال.

أرجو أن نجدد بكل الوسائل ذكرى الإمام الحسن ﷺ، ذكرى عام الجماعة، ذكرى البيعة العظيمة التي جمع الله بها أمة محمد، ذكرى فناء الفرد في الجماعة، وإيثار مصلحة الجماعة على حاجات الأفراد، التي تصادف كما حققتها يوم ٢٨/ ربيع الآخر/عام واحد وأربعين للهجرة، وقد صادفت يوم ١/أيلول/٦٦١ للميلاد.

شهداء في ليلة القدر[٨]

كم تمنيت أن يكون المجرم صهيونياً محترفاً أو من جنسية استعمارية مصَّت في الماضي خيرات سوريا وهي تراودها اليوم لتستأنف ما بدأته من قبل! ولكن خبر السوء لم يبطؤ حين تأكد أن التفجير كان من تدبير جماعة تكفيرية عربية مسلمة أرسلت الموت لأبناء الشام الشريف مع صباح ليلة القدر، عند قارعة الطريق.

إن التكفير أكبر آفات العصر وهو نار توقدها الإدارة الأمريكية بحروبها الطائشة؛ إذ تمنح للتيارات التكفيرية فرصة ذهبية لتجنيد الناس في أعمال الموت، ويتم تصوير المجتمع برمته قاعداً عن الجهاد في وجه الغازي الأمريكي ومن ثم مرتداً عن الصراط المستقيم، ويروج القول الأول من مات لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو فقد برئت منه الذمة!

لم يقعد التكفير تاريخياً عن ممارسة الموت، وفي ضحايا التكفير الأول أسماء كبيرة أبرزها علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، فقد امتدت إلى

[٨] نشرت في مجلة إلى الأمام، تشرين الثاني ٢٠٠٨.

الراشدين يد التكفير وقال أعداء عثمان: اقتلوا نعثلاً فقد كفر، وقال أعداء علي ﷺ في الثناء على قاتله المجرم عبد الرحمن بن ملجم:

يا ضـربة مـن تقـي مـا أراد بهـا إلا ليبلـغ مـن ذي العـرش رضـواناً
إني لأذكـــره يومـــاً فأحسبـــه أوفى البريـــة عنـــد الله ميزانـــاً!

ودون أدنى تعليق فإذا كان التكفير قادراً على غسل الأدمغة إلى حد تصنيف صهري النبي الكريم الإمامين الراشدين هدفاً مشروعاً لإقامة حدِّ الردة، فمن دون أدنى شك سيتم إدراجنا جميعاً في هذه القوائم بدم بارد، ولن يكون أحد بمنأى عن سيف الغدر الذي ينصبه التكفير للناس، ويوردهم موارد الهلاك.

ومع أن المقال الصحفي يجب أن يتجنب الوعظ والإرشاد، ولكنني معنيٌّ هنا بأن أشير إلى بعض الأحكام الفقهية التي تترتب على المؤمن في مواجهة هذا اللون من الانحراف.

إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [البَقَرَة: ٢٨٣]، وهذا الحكم يؤسس لجملة من التكاليف الشرعية الواجبة على المؤمن، فلم يعد مقبولاً من المؤمن أن يقول إنني غير معنيٍّ وبذلك فليس لي شأن بما يجري؛ بل إن التكاليف الشرعية تلزمك هنا بعدد من

الواجبات الكبيرة، أولها النهي عن المنكر باليد واللسان ثم بالقلب وذلك أضعف الإيمان، ومن ثم مقاومة أي تفكير أو ممارسة تؤدي إلى التكفير، وعلينا أن نراقب ما يتلقى أولادنا من المعرفة، بحيث لا يتاح لأحد أن يستورد لهم ثقافة التكفير تحت أي لبوس كان، وعلى المؤمن أن يتأهب للرد على كل ثقافة تكفيرية سواء كانت في حلقات الظلام، أو تسللت إلى المحاريب أو المنابر.

ومن المؤسف أن نقول إن كثيراً من ثقافة التكفير تسللت إلى بعض المناهج التعليمية (قتل تارك الصلاة نموذجاً)، وفي نموذج أقرب يمكن الإشارة إلى لوحة طبعت قبل سنوات (لوجه الله) وعلقت في مساجد دمشق ومدارسها وفيها فتوى ابن تيمية بنواقض الإسلام العشرة التي من فعل واحدة منها فقد كفر وارتد وحلَّ دمه وماله بالإجماع، وحين تدنو من هذه العشرة تفاجأ بأنها تشتمل على تكفير من احتكم إلى قانون وضعي ومن زار قبراً يعظمه، ومن استغاث بغير الله، وهكذا فعبر هذه اللوحة يتم هدر دم ملايين من السوريين مرة واحدة، ونحن لا ننتبه لما نروج من ثقافة التكفير والدم.

وهنا فإن المؤمن ليس قمعاً للقول؛ بل هو مطالب شرعاً أن يأخذ على يد الظالم، وهذا الظالم قد يكون تاجر سلاح محترفاً لصناعة الموت، وقد يكون كاتباً أو خطيباً تكفيرياً يهدر دماء الناس بما يصدره من فتاوى متهورة،

وقد يكون شيخاً فضائياً ينقل من تراث الأجداد، ولا يجوز أن ينظر إلى آراء كهذه تراق فيها الدماء على أنها محض وجهات نظر؛ بل يتعين على الأمة أن تأخذ على يد ظالم كهذا، وتقف في وجهه ولو زحم خطابه لنصوص من الأدلة فإن النصَّ الذي لا شك فيه هو أن الإسلام رحمة للعالمين، وكلُّ نصٍّ يريق دماء الناس لمواقفهم الدينية فهو كفر برسالة الإسلام في التسامح والرحمة!

وعلى المسلم أن يزود مخزونه من ثقافة احترام الإنسان، أياً كان دينه أو جنسه أو لونه، من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

ولكن ما هو أكثر وجوباً في هذه الحالات هو وجوب الحذر من كل كيد يتربص بالأمة فلا يقبل من المؤمن في أوضاع كهذه أن يعتبر نفسه غير مسؤول عما يجري، وأن يشير إلى مسؤولية الآخرين؛ بل إن الجهر بالشهادة يعتبر هنا واجباً شرعياً تاماً، بحيث يحرم كتم الشهادة إذا كنت ترتاب في أمر بعض من يخططون للموت والقتل.

كل مؤمن خفير، وعلينا أن نحترس من الناس بسوء الظن، وفي ظروف كهذه فالمسلم مأمور أن يكون أكثر الناس وعياً وحذرا بما يرتاب منه، وليس من حقه هنا أن يأخذ الآخرين بحسن الظن، وعلينا أن ندرك الدور

المتكامل بين مسؤولية الحاكم ومسؤولية المحكوم، ودور كل منهما في مؤازرة صاحبه.

إن عبارات مثل: يصطفلوا، ما دخلنا، من تدخل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه، الطاقة اللي يجيك منها الريح سدها واستريح، فخار يكسر بعضو، وغيرها من أمثال اللامبالاة المشحونة باللؤم والسخرية لا يجوز أبداً أن تكون ناسخة للتوجيه القرآني الصادق الطافح بالمسؤولية والجدية: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [البَقَرَة : ٢٨٣].

لا أحد يريد لهذه المأساة أن تتكرر ولكن من لا يحسب لا يسلم، ومن مكمنه يؤتى الحذر، واحترسوا من الناس بسوء الظن، والساكت عن الحق شيطان أخرس.

في فوضى الفتاوى التي تطبع اليوم القنوات العربية والصحف والمجلات العربية فإن لدينا مخزوناً من فتاوى التكفير يجعلنا نشعر بالحرج والمسؤولية المباشرة في حماية أوطاننا، ولست راغباً أن أقدم خدمة بالمجان في دعاية لفتاوى كهذه، ولكنني أثق بعقل المؤمن الذي ينطلق من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ [النِّسَاء : ٩٤]، ويقول: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ [البَقَرَة : ١١٥].

الجنة للشهداء الذين رفعت أرواحهم إلى الله في ليلة القدر، اللهم اجعل الجنة لهم داراً، واجعل النبي لهم جاراً، واجعل الملائكة لهم زواراً.

قراءة في فتح مكة[٩]

يوم السلام العالمي

لا نبالغ في شيء إن قلنا إن يوم فتح مكة هو أولى الأيام بخيار الأمم المتحدة لإعلان يوم السلام العالمي!

كان قرار فتح مكة قد اتخذ قبل عامين اثنين، في أعقاب فشل قريش في اقتحام المدينة يوم الخندق، وبعد انتهاء معركة الخندق بأقل من شهرين كان النبي الكريم ﷺ قد قضى على بني قريظة ودكَّ معاقل خيبر، وبذلك قطع الأحلاف عن قريش وأصبح قادراً على اقتحام مكة.

ومع أنه خرج عام الحديبية منصوراً مبروراً على رأس ألف وأربعمئة مقاتل، ولكنه كان حريصاً أن يدخل مكة بأمان وسلم، وحين جاءه من يحذره من خروج قريش لمواجهته نظر في الأفق وقال: يا ويح قريش، لقد حمشتهم الحرب! وماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب؟ فإن أصابوني كان الذي يريدون وإن كانت الأخرى قاتلوا وبهم قوة!

[٩] نشرت في جريدة الثورة ٢٠٠٨/٩/١٩.

ورغم الاستفزاز الذي تعمدته قريش ولكنه قرر أن يغير طريقه لئلا يصطدم بكتيبة الفرسان من قريش، وسلك طريقاً وعرة كثير الحجارة، ومع أنه وصل إلى الحديبية وهي على مسافة عشرين كيلومتر من مكة؛ ولكنه لم يقتحم على مكة وانتظر تفاوضاً مع قريش وحقق الصلح معهم بشروط غريبة أقلها أن لا يسمح له باستقبال مؤمنين جدد من مكة، وأن يسمح للمرتدين مغادرة المدينة دون قيد ولا شرط، وأن توضع الحرب عشر سنين، وأن يعود من حيث جاء بلا عمرة لئلا يتحدث العرب أن محمداً دخل مكة عنوة!

كان ذلك ثمناً بذله من أجل السلام، وكان يأمل أن يشرح الله قلوب أهل قريش لوضع الحرب والبحث عن السلام.

وحين نقضت قريش صلح الحديبية وقتلت عدداً من حلفاء النبي الكريم من بني خزاعة في مكة، استكمل الرسول الكريم الشروط القانونية لإعلان الحرب على قريش واجتياح مكة، ولو فعل لكان ظافراً منصوراً ولحظي بتعاطف كبير من القبائل العربية التي علمت بنقض قريش لصلح الحديبية.

حين تحرك صوب مكة كان معه عشرة آلاف مقاتل، ولكنه لم يشأ أن تراق قطرة دم واحدة في يوم الفتح الأعظم!

كان من الممكن أن يعلنها غضبة مضرية تهتك حجاب الشمس أو تقطر الدما، وأن يتحرك بجيشه الكبير هادراً ثائراً حتى يطوق مكة من شعبها الأربع، وأن يفعل بها ما فعله الفاتحون من قبل، وأن تغلي كتائبه بنشيد الثورة والنصر، وأن يقرع طبول المعركة ليسجل في التاريخ ملحمته الظافرة يوم الفتح الأعظم!

لكنه لم يفعل، لقد مشى بصمت ووراءه رجاله ولم يكن قد أخبر الناس بوجهته التي يريد، وتحرك صوب الشام حتى تحير الأصحاب في مراده وغايته، وبعد مسافة طويلة طوق الجيش برجاله ثم أخبرهم بقرار الفتح الأعظم.

كان يقول: اللهم عم الأخبار عن قريش حتى نفجأها في دارها، وبسرعة انساح في الصحراء يناهب الزمن حتى أطل على مكة من شعبها الأربع بجيش عرمرم لا قبل لأحد بمواجهته.

كان يريد أبا سفيان، إنه رأس قريش وزعيمها المطاع والمطلوب أن يساعد في فتح آمن لا تراق فيه الدماء، وبخطة حكيمة تمكن بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام من استدراجه إلى معسكر النبي الكريم، وهناك وقع أسيراً بلا عقد ولا عهد، وكان بالإمكان تصفيته كأسير محارب لله ورسوله؛ ولكن النبي الكريم أكرمه وعفا عنه ونادى في الناس من دخل دار أبي سفيان فهو آمن!

وهكذا تحول أبو سفيان من محارب شرس إلى نسر بلا مخالب يحمل لقومه فرصة أمان وسلامة، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن!

حين أتم نصره ودخل إلى الكعبة المشرفة ظافراً منصوراً وصلى في جوف الكعبة ركعتين وهدم ما فيها من نصب الجاهلية ثم خرج ليرى أعداءه الشرسين الذين حاربوه عشرين عاماً وقد أسقط في أيديهم وأصبحوا محض مطلوبين للعدالة تشتاق إلى أعناقهم سيوف العدل والقصاص، قال لهم بلهجة صارمة: ما تظنون أني فاعل بكم؟ تحسسوا رقابهم، وتلا كل واحد منهم دليل اتهامه على جبين صاحبه، وفيه دماء سبعين شهيداً يوم أحد وأكثر من ذلك في أيام الإسلام المختلفة، ولكنهم في النهاية استجمعوا ما تبقى فيهم من أعصاب وقالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم!

وطاف بخياله عشرون عاماً من الحرب والمكر، و الغدر والعناء، كابدها جراء غرورهم وأوهامهم وهم يحاربونه في كل وجه، ولكنه لم يزد أن ابتسم وقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء!

كان مدهشاً أنه لم يقل لهم لقد أطلقتكم أو عفوت عنكم أو سامحتكم!

لم يشأ أن يبطل عفوه بآفة المنِّ، ولم يشأ أن يريق ماء وجوههم، واختار أن يخبرهم بأنهم طلقاء أطلقهم الله ولا يد لأحد غير الله عليهم في رقابهم وأعناقهم.

ولكن اثنين من المشركين كانوا قد استحقوا سيف القصاص وهم عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة وهؤلاء كانوا قد ارتكبوا جرائم قتل مباشرة لصحابة آمنين وكان من المنطقي أن يحاسبوا على ما جنته أيديهم.

وجميع الذين أعلن عنهم مطلوبين للقصاص تم العفو عنهم فيما بعد ومنهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، ووحشي بن حرب، وكعب بن زهير بن أبي سلمى، وآخرون كثر.

ولعل أشهر مواقف العفو والمرحمة موقف الشاعر كعب بن زهير الذي شاع أنه مهدور الدم ولم يجد سبيلاً للخلاص من ذلك إلا أن يقوم بين يدي رسول الله، وهناك أنشد واحدة من أعذب قصائد الاسترحام، ومطلعها: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول، وفيها:

تسعى الوشاة بجنبيها وقولهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

وحين وصل إلى قوله:

إنَّ الرسـولَ لسـيفٌ يستضـاء بـه   مهنـدٌ مـن سـيوفِ اللهِ مسـلولُ

ألقى عليه رسول الله ﷺ عباءته إشارة إلى العفو الذي كان يأمله من رسول الله.

ولعل من أجلى صور العفو والسلام أنه لما وقع أبو سفيان في الأسر، قال النبي الكريم للعباس: احبسوه عند مضيق الوادي، حتى إذا جاءت كتائب الصحابة قال حامل الراية سعد بن عبادة: اليوم يوم الملحمة، اليوم أذل الله قريشاً! لقد كانت كلمات واقعية، ولكن رسول الله ﷺ بادر من فوره حين بلغه ذلك فمضى إلى سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى قيس بن سعد بن عبادة وقال: اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزَّ الله قريشاً...

إنه بالفعل يوم المرحمة يوم أعز الله العرب يوم الفتح الأعظم يوم فتح مكة.

من ثقافة الكراهية إلى جرائم التكفير[١٠]

تتنامى اليوم كالفطر ثقافة التكفير في العواصم الإسلامية الملتهبة وفق ما نشاهده كل يوم في المأساة العراقية الدامية، وأصبح الذين يتحدثون عن الحرب الأهلية المحتملة في العراق يغالطون أنفسهم؛ لأن ما يجري هو في الواقع الحرب الأهلية بكل تفاصيلها؛ إذ يتم استهداف باصات كاملة متوجهة إلى أحياء بعينها على أنها مادة مشروعة للقتل، بناء على قرائن الاعتقاد التي يحملها الركاب (المعترون) ومع أننا نقذف التهم عادة على المحتل وهو كذلك، والاحتلال لا يأتي بخير أبداً، ولكن يجب القول أيضاً إن ثقافة الكراهية هي التي أسلمتهم إلى خيار القتل هذا، حتى قاموا بممارسته بحماسه من دون أن تؤلمهم بعد ذلك وخزة ضمير.

الناس يتحدثون عن أساليب شيطانية للمحتل في تفجير السيارات بالريموت كونترول وإظهارها على هيئة عمليات انتحارية، ومع أن ذلك ممكن ولكنني لا أصدق أبداً أن ما يجري من طاحونة الموت هو مجرد لعبة ميكادو يمارسها الأشرار عن بعد؛ بل أجزم بأنها لم تكن لتحصل لولا ركام من ثقافة الكراهية التي جهدت مؤسسات السوء على تكريسها في ثقافة الشعب

[١٠] نشرت في جريدة الثورة ٢٠٠٦/٧/١٤.

المغلوب على أمره، لعقود وقرون طويلة، الذي قصر فقهاؤه في حمل مسؤولياتهم في مواجهة ثقافة الكراهية واكتفوا بممارسة التأويل والتبرير والإعذار لفتاوى الأولين من دون خوض مواجهة صحيحة لثقافة الفتنة مهما أحاطت نفسها بثوب القداسة، وتعميد التاريخ.

قبل أيام تابعت عرضاً على قناة الرسالة يتحدث فيه المحاضر عن تفسير الآية: ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البَقَرَة : ٢١٧]، وتناول فيه أمر المواجهة مع أعداء الله من الملاحدة والزنادقة والكفرة، طرح على الشيخ السؤال الآتي: أعيش في أستراليا ولا يوجد من حولنا من يحارب الله أو رسوله ونشعر بأن لدينا من التسامح والتراحم ما كفل لنا حقوقنا كلها ولا نشعر بالحاجة إلى مواجهة أحد فكيف يمكن تأويل هذه الآية؟

كان الجواب صادماً بكل المقاييس؛ إذ تحدث الشيخ بغضب عن هذا السؤال بافتراض التناقض فيه، وقال: مستحيل أن يكون أعداء الله غير موجودين، إن الله يقول: ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾، ومباشرة قال للسائل صدق الله وكذبت ظنونك، إن أعداء الله موجودون في كل مكان وعليك أن تعيد دراسة الناس من حولك بعين البصيرة وستجد أن أعداءك من حولك في كل مكان!

فالمطلوب إذن أن تتخذ نظارة سوداء وتنظر من خلالها إلى الناس، وهكذا فالمرعوب سيرى في كل سواد ذئباً وفي كل بياض ضبعاً، وفي كل إنسان مشروع قاتل!

خلال إعدادي لخطبة الجمعة وقع بين يدي كتاب (مسوؤلية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة)، للشيخ باحارث، وهو كتاب كما يبدو من غلافه حظي باهتمام كبير وتقاريظ متعددة، وهو مطبوع طباعة أنيقة ومرتب وفق أفضل ما أبدعته التكنولوجيا الحديثة، ويقدم هدية في الأعراس والأفراح.

فيما كان المؤلف يتحدث عن مسؤولية الأب في تربية أبنائه راح يتحدث عن الحبِّ في الله والبغض في الله، وبالطبع فإن الحديث عن الحب في الله تناول الحب مع المؤمنين، وتوقعت أن يكون الحديث عن البغض في الله متركزاً عن الموقف من الصهاينة والمجرمين من أعداء الدين، ولكن الحديث انصرف خصوصاً إلى وجوب بغض المخالفين في الاعتقاد وأول من ينبغي بغضهم في الله هنا هم الرافضة والصوفية، ولكن مزيداً من المفاجأة في التفاصيل فقد مضى المؤلف إلى الحديث عن وجوب بغض تارك الصلاة وقال ما نصه: إن تارك الصلاة كافر إجماعاً إن تركها جحداً، وحدُّه القتل كفراً لا حداً.

ومقتضى ذلك أنه لا يغسَّل ولا يكفَّن ولا يصلَّى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولكن الحكم عنده فيمن تركها كسلاً أهون؛ إذ يجب استتابته ثلاثا فإن لم يلتزم بها فإنه يتعين قتله حداً لا كفراً، ويستلزم ذلك أنه يغسل ويكفن ويدفن في مقابر المسلمين! ولكن يتعين والكلام هنا للشيخ باحارث- أن نبغضه في الله، وهنا قال: إن الحكام للأسف لا يطبقون حدَّ الله في هؤلاء وهو ضرب أعناقهم، ولذلك يجب على الوالد أن ينهض بالمسؤولية الشرعية في تعليم أبنائه بغضهم في الله، وهو (مكتور الخير)؛ إذ لم يقل أنه يتعين على الأبناء تنفيذ الأحكام الشرعية فيهم باسم الرب نيابة عن الحاكم!

مستحيل أن تكون ثقافة كهذه تنتمي إلى الدين الذي نصَّ فيه القرآن الكريم على تحريم الإكراه في الدين، لا إكراه في الدين، ولا إكراه في الصلاة ولا إكراه في العبادة، ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

مؤلم أن تكون ثقافة البغض في الله متوجهة إلى الجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب، وأن تبدأ بالصوفيين والقبوريين والمخالفين في الاعتقاد، ثم تبيح دم الرافضة والناصبة، ثم المفرطين في صلاتهم وصيامهم، وحين تأخذ ورقة وقلماً وتبدأ بإحصاء المواطنين الذين ينبغي أن نكرههم في الله

ويتعين على الحاكم أن يقيم فيهم حد الله، حين ذلك ستهون أمامك كل محاكم التطهير العرقي والهولوكست وسربرينتسا والخمير الحمر!

ليس الكلام هذه المرة من ثقافة العصور الوسطى ولا هو فتوى مدونة لابن تيمية يعاد نشرها وتسويقها، أو سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس؛ بل هو رسالة دكتوراه تناقش في جامعة عربية محترمة وتحظى بالتقاريظ المتعددة من مراجع عربية كبيرة.

متى سنمتلك الجرأة الكافية ونقول بملئ أفواهنا إن ثقافة الكراهية حرام في الإسلام، وأن النبي الكريم علم الناس الحب حتى مع المخالف في الدين، قال تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عِمْرَان : ١١٩]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القَصَص : ٥٦]، والكلام هنا عن وثنيين يعبدون الحجر من دون الله، وأن حربه مع المشركين كانت في إطار رد الظلم والعدوان ولم تكن أبداً بقصد التطهير العرقي أو الديني الذي رآه العالم في باميان بآلافها الأحد عشر الذين أعدموا يوم الفتح (الكبير) على خلفية موقفهم المذهبي والطائفي.

السؤال كيف نحمي وطننا من ثقافة الكراهية، وتالياً من ثقافة التكفير، واضح أن ذلك لا يتم بمجاملة الثقافة الشائعة؛ بل في مواجهتها ببسالة وشجاعة، والعودة إلى ضياء النص الحكيم الذي تم اغتياله في غمار

رواج ثقافة الكراهية، الذي مايزال نصه واضحاً لا يحتاج إلى أدنى تأويل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغَاشِيَة : ٢١ - ٢٢]، فكيف يمكن أن نفهم نص القرآن الكريم في نفي سيطرة النبي على الناس إذا اختاروا ما يشاؤون من العقيدة ثم نقرر واجب الأمة في قتل المخالف أو المقصر في دينه؟ أو على الأقل وجوب كراهيته واحتقاره؟

مستحيل أن تكون ثقافة الكراهية هذه تنتمي إلى دين ينطق قرآنه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النِّسَاء : ٩٤]، وتختصر شريعته بقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأَنبِيَاء : ١٠٧].

عن حذيفة بن اليمان قال:

كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال ﷺ: «نعم»، فقلت: هل بعد ذلك الشرِّ من خير؟ قال ﷺ: «نعم وفيه دخن»، قلت: وما دخنه؟ قال ﷺ: «قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر» فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها!» فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا!

قال ﷺ: «نعم، هم من جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا»، قلت: يا رسول الله، فما تأمرني أن أدركني ذلك؟ قال ﷺ: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال ﷺ: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك». رواه البخاري ومسلم.

الفهرس

تصدير ٣
فقه الجهاد وبؤس الفتنة ١٣
معالم فقه الجهاد في الإسلام ١٥
جهاد الدفع وجهاد الطلب ٢١
الجهاد والفتنة ٢٧
قراءة فقهية في أحكام الجهاد والصيال ٣١
الفرق بين اعتزال الفتن وردّ الصائل وقتال البغاة ٣٥
التكفير وهدر الدم ٣٩
من فتاوى التكفير ٤٥
حق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة ٥١
هولو... جزيرة الهول ٥٩
دماء في سامراء ٦٥
قراءة في تداعيات الفتنة ٦٥
لا شرفَ لبندقية ٧٣
سيف سعد الذي لم يخلق بعد ٨١
لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ... ٨٥
البشير وغارانغ ٩٣

قراءة في بؤس الحرب العادلة.....٩٣
وجهاً لوجه: أحمد جبريل وجودت سعيد ١٠١
نار الثأر وروح الغفران ١٠١
رسالة مكة... الكفاح الفلسطيني أمام الله والتاريخ.....١٠٧
قراءةٌ في فقه عام الجماعة ١٠٧
شهداء في ليلة القدر ١١٧
قراءة في فتح مكة ١٢٣
يوم السلام العالمي.....١٢٣
من ثقافة الكراهية إلى جرائم التكفير ١٢٩